د. إيهاب سلام

السفر إلى زمن ميت

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٣٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا ت ٣٩٠٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

﴿ ١ ﴾

ليس بعد أن انطوى الزمن ، ودفن فى لحد التاريخ ، أن يسافر أحدكم ليفتح المقبرة ، وينبش فى التراب ، ويرفع الجاديل ، ويبعث الزمن الميت . . هيهات أن يجد أحدكم قطارا يقله إلى محطة ذلك الزمن . بل هيهات أن يجد تلك المحطة ؛ لأن معالمها اندثرت ، وأصبح من المستحيل السفر إلى زمن ميت .

﴿ ٢ ﴾

كثيرون يسخرون ويزعمون أن الإنسان لا يغير شيئا فى نفسه . لكن زعمهم باطل . هأنذا أتغير الآن للمرة الألف ، ولا أحد يدرى . وأخوض مجتمعات جديدة لم أكن أرتادها فى يوم من الأيام . وبها شخصيات كثيرة لم ألتق بها من قبل .

تتقدم منه وتقول :

— أنت آنستنا يا سيد رحمى هذه الليلة .

يقول :

— سيدتى اسمحى لى أن أتقدم بالتهنئة الحارة لعيد ميلاد ذهنى بك . وأرجو أن يديم الله أيامك سعادة وهناء .

تسأل فجأة :

ــ ألم ألتق بك من قبل يا سيد رحمى ؟

(لا تضطرب ، اثبت . ميزتك أن عينيك عينا ثعبان لا أهداب لها.)

يقول بثبات :

ــ لا أعتقد . إن هذه أيامى الأولى فى القاهرة .. وكنت من قبل مقيما فى أسيوط . وصممت أن أخوض الأعمال فى القاهرة بأموالى الطائلة ، بدلا من أن تتكدس فى الخزائن .

ــ غريبة .. ولكن أعتقد أنى رأيتك من قبل ! .

(تتركنى وتمضى للاحتفال بمدعويها. يا لك من امرأة ساذجة إذا كان فى إمكانك أن تكشفى العالم كله ، فهل تكشفين رحمى ؟ . . من ذلك الذى يجرؤ أن يُظهر باطنه ؟ بل كيف يمكن أن يظهره ؟ من تكون هذه المرأة ؟ . . لم لاتقلب فى ذاكرتك يا رحمى ؟ . رحمى . . أأقول اسمك الحقيقى ؟ أم أنك تريد أن تتمرن على هذا الاسم الجديد ؟ أتكون هذه السيدة ضحية من الضحايا ؟ كأنى رأيتها من قبل . ويراها نحلة توزع ابتسامتها المغمورة فى العسل على كل أفراد الاحتفال .)

(أيكون هو ؟ ــ لا يختلف كثيرا عنه . إن الاختلاف الوحيد فى اللحية الطويلة والشارب الكث . أما العينان السوداوان العميقتان . ليل كثيف مظلم يخيف رواده . والأنف المدبب . ولكنها لا تذكر الشعر . فقد كان متخفيا تحت العمة الخضراء . وساعة أن دخل الحجرة المظلمة كان الظلام كثيفا . بئر عميقة سكن فيها الدجى زمنا حتى لطخها بلونه . لم تره .. لكنها تعرفت عليه من نبرات صوته . هى البصمة

الوحيدة التى كشفته . صوت مميز هادىء فيه بحة خفيفة محببة . لا شك أنه السجال الذى لجأت إليه)

(٣)

اليوم يحتفلون بعيد ميلادك الثامن والستين يا ذهنى .. تصور، حتى إخوتك يحضرون الحفلة : الأرمل الذى رفض أن يتزوج بعد أن كتم أنفاس زوجه ، والعوانس الثلاثة اللواتى استكبرن على النكاح . ولعلهن الآن يطلبن أن يعود الزمن القهقرى حتى يدخلن فى العش السعيد . لكن عجينهم الأربعة عجين يلفظ سما . ومذاب فى عصير الكراهية . ما ذنبى أن أباهم تزوج على أمهم فى السروخص أمى ببعض ماله وآل إلىّ هذا المال بعد موتها ؟ . وهم بددوا أموالهم ، استهلكوها . بينما جددت أنا الثروة ، وقمت بتنميتها فزادت ، وتضخمت ، وعجزوا عن عدها . وكانوا ينتظرون ـ وقد تعديت الأربعين ـ أن تؤول إليهم . غير أنى تزوجت . وعادوا من جديد يترقبون أن يتحول جسدى المملول إلى حطام ، وأتوارى فى التراب . غير أن الجسد صمد . بل كانوا يتابعون ألا أعقب . غير أن زوجى خيبت ظنهم وأنجبت هشاما . ونسب إلىّ رغم أنى — وهى تشاركنى المعرفة — أدرك جيداً أنه ليس ابنى بل هو ابنها . ابنها . لو حاولوا أن يحللوا ماء الحياة فى ضلوعى لعرفوا أنه خال من البذور . ماء راكد لا شىء يسبح فيه . ولم أثر عليها رغم أنها تنسب إلىّ طفلا ، لأنى أبادلهم الكراهية . ولا أريد أن يرثوا قرشا واحداً من ورقى ، لتذهب إلى الغريب ، ولا يحصلوا على مليم أحمر منها . كل

ما أريد أن أعرفه هو أبو هذا الولد .. رغبة عارمة تجتاحني . غير أنها الشيء الوحيد الذي لا أستطيع أن أشتريه بنقودي . ولا يتمكن شرطي خاص أن يسبر أغواره . لقد أخطأت ، ولم لعاود الخطيئة . ومات السر ، وقد تكون المحاولة في إحيائه سبباً في حدوث بركين أتمنى أن تبقى هادئة .

— أهلا حمزة أخي . . مضى وقت طويل لم أرك . لعل المانع خير .

— الحقيقة مشاغل .

— لقد دنوت من السبعين يا أخي .. فما هي المشاغل في مثل هذه السن ؟

— أتظن لأني لا أملك شركات مثلك أنه لا توجد لدى مشاغل ؟.

— حق وأنا أملك شركات — كما تقول — أشعر بالفراغ .

— إذن لم لا تسأل عنا ؟ ..

ضحك وهو يقول : أبدا . . مشاغل .

ويضحك الأخان المتقاربان في السن . فقد أنجبته أمه ، زوجة أبيهما الأولى ، بينما كانت الزوج الثانية حاملا فيه .

ويقترب رحمي من صاحب الحفل ، وقد انصرف عنه أخوه ويسأله :

— أراك جالسا ؟

— الحقيقة أن الاحتفاء بالمدعوين تقوم به زوجي ، فأنا رجل عليل ، كما تراني . والجميع يتوقعون أن أضع رأسي بين لحظة وأخرى . غير أني أخيب ظنهم .

يضحكان معاً . ويستطرد ذهنى قائلا :

— الغريب أن هذا الجسد المعلول استمر هذه السنين الطويلة دون أن يقبض عليه قابض الأرواح .

« تذكرت » .

﴿ ٤ ﴾

فى نفس الحفل يتقدم منه أحد المدعوين ويقول :

— انت شرفت الحفلة اليوم يا رحمى بك .. وأريد أن تحدد لى موعدا ألتقى فيه بك .

— أعطيك بطاقتى الآن .. وعليك بالاتصال بسكرتيرتى لتحدد لك موعدا . لإنى أتحرك بتوجيهاتها . إذ قد أحدد لك موعدا، ولا أستطيع أن أقابلك فيه لأن الجدول لديها يحول دون ذلك .

— وهو كذلك .

ثم يرمقه ويتساءل :

— ألم نلتق قبل ذلك يا رحمى بك ؟

— الحقيقة لا أذكر . فقد دفنت نفسى دهرا فى أسيوط . وقررت أن أرحل عنها إلى عاصمة النور . ونفضت عنى الظلام فى وقت حديث .. كيف إذن أكون قد التقيت بك ؟ ! . هل زرت أسيوط ؟

— لا .. أبدا .

(ما هذه الحفلة الملعونة ؟.. أكل شخصيات الماضى سوف تبعث فيها؟! لا .. أيها الماضى . لقد اشتريت كفنك ، وغسلتك حتى تتطهر . وواريتك

بعد أن ارتديت الكفن فى بئر عميقة . وقد سددت عليك بالجنادل . وهلت عليك التراب . ومهما صرخت فلن يسمعك أحد . إن هذا البعث الذى تشعر به هو بعث كاذب . وحتى لو عادت إليك الحياة ، ثق أنك لن تخرج أبدا من لحدك المظلم).

يقوم عبد السميع :

— لكن . فالوجوه متشابهة . قد يكون هناك شخص يماثلك التقيت به من قبل .

— من الجائز ! .

(ولكن هل أنا أعمى يا خلق ؟ . . إنه ماثل أمامى بشحمه ولحمه وعظامه أيضا . أنا أعرفه من هذا البروز فى وجنتيه . وهاتين العينين السوداوين. وهذا الصوت ذى البحة الخفيفة . بل طوله الفارع : خادمى منصور الذى كان يدس لى السم بطيئا . وسرق مالى وهرب . ولكنه ليس منصور . منصور كان فلاحا من الوجه البحرى ، وهذا من الوجه القبلى .يتكلم بلكنة صعيدية معروفة . لم يخطىء منذ بدأت السهرة ونطق لفظا قاهريا . أنا أراقبه . لكن لم تفتش الآن عن منصور ؟ . لقد بحثت الشرطة عنه دهرا .ولا سبيل أمامك لاتهامه بشيء؛فقد سقطت الجريمة بالتقادم . أنت محام وتعرف ذلك . أمعقول هذا ؟ أن أترك لصا وقاتلا يفلت من العقاب ؟ وماذا بيدك يا عبد السميع ؟) .

يقول عبد السميع :

الموضوع يتلخص فى أنى أرغب أن تكون عميلى .

— وهذا يشرفنى .
— أفهم من ذلك أنك قبلت .
— لاتفهم ذلك. يجب أن يناقش ذلك فى الشركة وحينما يقرر الأعضاء أن تكون محامى الشركة فأنا أخضع لرأى الأغلبيـة . إن الأمر يا عبد السميع بك يتوقف على رأى الأعضاء .
— وأنا سأنتظر .
(لابد أن تكون لى علاقة به حتى أكشف أن هذا الرحمى هو منصور الخادم . حينئذ ماذا ستفعل ياعبد السميع ؟) .

﴿ ٥ ﴾

أيجوز فى هذه الحالة وقد بدأ البعض يسافر إلى الزمن الميت . أن تنسحب من هذه الحياة الجديدة ؟ . . وماذا بيدهم أن يفعلوا ؟ . . أولا : من المستحيل أن يجدوا القطار الذى يحملهم إلى القرافة . ومن المستحيل ثانيا أن يعثروا على المقبرة التى دفن فيها الماضى .

﴿ ٦ ﴾

أطفأت سامية الأنوار ، وتأكدت أن ذهنى استسلم للنوم ، وأن أزمة الربو خلعت أنيابها من صدره ، وأن هشاما قد كف عن السهر ، وأخلد لسبات عميق . غريبة أطوار هذا الولد كأنما يشعر أنه جاء على خلاف ما يجىء الناس .
ورقدت فى فراشها فى غرفتها المستقلة . لقد أردت المال ، وها هو

يرقد مستكنا فى خزانتك فى الدار والمصارف المختلفة . وأردت الولد ، ورزقت بهشام . ماذا تريدين الآن ؟ العودة إلى شهرين كانا فى لون الورد ، ألم تكفى عن ذلك منذ زمن طويل ،يوم ذهبت إلى شقته،وسألت عنه ، وقيل لك إنه رحل ، وفتشت فى الدنيا كلها ، وسألت الأصدقاء والصديقات عن مكان يكون قد حل فيه ، غير أن الجميع أجمعوا أن أخباره أصبحت عسيرة المنال ، وأنه اختفى كما يختفى الشهاب فى السماء . أيمكن أن يكون هو رحمى ، قد غير جلده ، وظهر فى مظهر الثرى القادم من الصعيد ؟ . . ولماذا أبحث عنه ؟ . أيمكن أن أقول له نبذة عن الماضى ؟ وماذا سأجنى من وراء هذا إلا الفضيحة إذا اتضح أن الشيخ عبد اللطيف لم يكن رحمى ! .

تحاول أن تنام غير أن القلق ينتابها . يسيطر على كل حواسها ، ويطير السبات من مخدعها .

﴿ ٧ ﴾

هذه ليلة لم أشهد مثلها . . سامية . وعبد السميع . . وها هوذا سائق سيارة الأجرة يتأملنى .

يقول السائق :

— أنا شهدى . . يا بك . . ألا تعرفنى ؟

لا يضطرب ، ويقول بهدوء :

— لا والله . .

يلتفت إليه ، ثم يعود يلتفت إلى الطريق :

— ألا تذكرنى . . خادمك المطيع شهدى يا شيخ عبد اللطيف .

يضحك وهو يقول :

— ماذا ؟.. شيخ عبد اللطيف ؟.. أتراني أرتدي جبة وقفطاناً ؟..

يرتعد السائق ويقول :

— بالله ألا تذكرني ؟. لقد كنت معك زهاء خمس سنوات . صوتك أميزه من ألف صوت . وهيئتك وأنت تدخل السيارة لا تغيب عن عاقل.

يقول رحمي :

— أما أنا فاسمي رحمي رضوان . أما الشيخ عبد اللطيف هذا فلا أعرفه . وليس في أسرتي أحد بهذا الاسم .

— عجيبة يا عالم . . نفس الشبه ولكنه كان بلحية طويلة وشارب كث ، نفس الصوت ولو أن لهجتك الصعيدية تختلف . نفس الجرم والعينين والشفتين . ماذا أقول ؟

— يمكنك أن تقول إن الله قد خلق من الصنف الواحد أربعين شبهاً .

— عجيبة . غريبة .. هذه الدنيا .

يسأل رحمي بفضول :

— لكن ماذا كنت تريد من الشيخ عبد اللطيف ؟

— أبدا . . مرتب خمس سنوات طويلة . كان يعطيني النقود ، ويستيقظ في الصباح ليستلفها مني .

— رجل عجيب حقاً .. كيف يكون مخدومك ويقترض منك ؟

— كان يدعي دائما الإفلاس . . ولكن الحق يقال إنه كان يطعمني ويسقيني ويكسيني . . بلا مقابل .

— وماذا كان يعمل ؟

لا ينطق شهدى . ويقول :

— ليس هناك داع . .

﴿ ٨ ﴾

هذا ما توقعه .. التقط المصورون الصور الكثيرة . ونشروها فى مجلاتهم . . عيد ميلاد الوجيه ذهنى أبو الخشب . . وبجانب الوجيه الصعيدى رحمى رضوان . وسيرى الناس كلهم الصور منشورة ، بارزة. وسيعرف الضحايا وغير الضحايا موقعه الحالى من المجتمع . ويتوافدون . ألم يسكن النمل تحت الأرض . . وفى الظلام الحالك . . ودون همس أو لمس أوقع وأجدى ؟ . . ولكن أصبح من العسير أن يكشفوا ملامح الماضى . إنهم يحتاجون إلى صورة أو بصمة أو وثيقة ، ولكن ريح ، أمر بالمكان ، أغير ما فيه وأمضى ، فهل يمكنهم أن يقبضوا على الريح ؟

الجلبة فى الخارج تشده ، ويفتح الباب بقوة ، وامرأتان لا تزالان تتعاركان : سكرتيرته المهذبة وامرأة يلوح أنها بولاقية .

— ما هذا يا ساوى ؟

يبادر سكرتيرته بالكلام ، تقول السكرتيرة وهى ترفع يدها عن المرأة المندفعة :

— هذه السيدة تريد أن تدخل المكتب بالقوة .

يقول أدب :

— ماذا تريدين يا سيدتى ؟

تصرخ ، وهى تقول :

— ألا تعرفنى ؟

يقول ، وهو يقف تاركا مكتبه يتأملها :

— لا . . لم أرك من قبل ؟

تتساءل ساخرة بنبرات جافة مرتفعة :

— ألا تعرف زوجك التى تركتها وهربت بأموالها منذ خمس سنوات ؟

— أأنت مجنونة ؟

— وهل المجنون يعرف أنه مجنون يا عثمان يا على ؟ . .

يتمالك أعصابه ويقول :

— يا سيدتى أنا لم أتزوج أبدا . . واسمى رحمى رضوان . ومنذ ولدت حتى الآن . . واسمى رحمى رضوان . أما عثمان على هذا فلا أعرف عنه شيئا .

لا يزال صوتها الأجش يصرخ :

— أتظن أن لحمى سهل يمكن أن يؤكل ؟ لا . . أنا لحمى مر . .

يتقدم منها بهدوء ويقول :

— يا سيدتى . . كيف أثبت لك أنى رحمى رضوان . . وأنى لم أتزوج حتى الآن . .

— لقد عرفت صورتك من مجلة الصور . وعرفت بالضبط أين أنت . . كل ما أريده أن ترد لى ثمن العمارة التى بعتها من أجلك . .

تخرج السكرتيرة مندهشة ، متعثرة فى ارتباكها ، والمرأة تستطرد :

— وأن تطلقنى .

يقول فى سخرية :

— أنت تحاولين أن تلصق به تهمة أنا برىء منها . فأنا أوصيك بالذهاب إلى الشرطة حتى تأتى وتحقق معى ، ويثبت لك أننى لست زوجك وتقتنعين تماما . . هيا يا سيدتى ، أسرعى .

تصاب المرأة بالذهول ، ترتبك ، تكاد تهدأ . لكنه ممثل ، مثل علىّ زهاء خمس سنوات حتى اطمأننت إليه . وسرق أموالى ومضى .. الحمد لله أننى لم أبع كل عقاراتى وإلا كنت قد أصبحت على الحديدة وتعود من جديد إلى ثورتها وتقول :

— إذن فأنت الجانى على نفسك .

تخرج المرأة وبدانتها تهز أردافها . تبدو جميلة غير أن السمنة أفسدت جمالها . وتصفق الباب خلفها ، وتدخل السكرتيرة تحاول أن تعتذر :

— حاولت أن أمنعها . . لكنها قاومتنى .

— لا بأس . يبدو أن هناك نصابا يشبهنى سرق أموالها وهرب ... مجروحة ، لا بأس أن تداوى جراحها حتى لا ينخر الجرح فى عظامها فيستمر الألم ..

هيهات . . هيهات أن تعرفوا أى القطارات يمكن أن يقودكم إلى محطة القبور . وهيهات إذا وصلتم إلى المحطة بالصدفة أن تجدوا القبر . . فقد مات الزمن ودفنته ، ولن يتيسر أبدا أن تجدوا لحده . ليس من السهل أن تتعرفوا على قبر ليس له رقم وليس له صورة وليس له تسجيل فى أى

مكان فى العالم .. أو بالأحرى ليس له شاهد .

(٩)

أذهب إليه وأقول له : إنك أبو هشام . وماذا يحدث لو اتضح أنه لم يكن أبوه ، وأنه شبيه له ؟ وماذا سأجنى غير العار ؟ ربما تحين له الفرصة للفضيحة ، فلايتورع عن إثارتها ، بمايذهب إلى زوجى يقول له: ان هشام ليس إبنك،وإن زوجك خائنة وإذا كان الرجل ساكتا الآن لأن كل شىء تم فى الكتمان... فهل يسكت وكل شىء قد انكشف ؟ .. كيف أضمن أن يصون الرجل سرى لو لم يكن هو الشيخ عبداللطيف ؟ .. اعقلى يا سامية . أنت لا تريدين أن يعرف أن هناك ثمرة له عندك . فهو يعرف بالتأكيد . أنت تريدين استعادة الأيام التى انقضت . تريدين تجديد الماضى .. هل الماضى يتجدد يا مجنونة ؟ ...

- الشيخ عبد اللطيف موجود ؟

- بطبيعة الحال يا مدام ...

- أريد أن أقابله .

- ألا تستريحين قليلا .

- ما اسمك ؟

- إسمى شهدى . .

- خذ ذلك الجنيه يا شهدى . .

- شكراً يا سيدتى .

تنتظر طويلا ، حتى يفتح لها الباب ، وتدخل وشهدى يقفل وراءها الباب بإحكام . لم يكن مثل بقية المشايخ التى سمعت عنهم . لم يكن أمامه بخور . وإن كانت رائحة المسك تملأ الحجرة . ولم تكن أمامه كرة بلورية سحرية . يرى فيها معالم الدنيا ، ولا يراها أحد غيره . إنما فقط كان يمسك المسبحة ، يبسمل ، ويحوقل ، وينظر إلى القادم بإمعان .

– ما مشكلتك يا سيدتى ؟

صوته تميزه هذه البحة الخفيفة . وعيناه السوداوان تملكان محدثهما ، تسيطران عليه .

– جئت إليك من طرف امرأة تعرفك .

– يا أهلا . . وسهلا .

— إنى فى مشكلة ولاسبيل إلى حلها إلاعلى يديك . زوجى معلول . وقدمه على بعد خطوات من القبر . وهو الوحيد فى عائلته الثرى . أخوه وأخواته الثلاث بددوا ثروتهم ويتطلعون الآن إلى ماله . لا يمكن أبدا أن أمنعهم من الاستيلاء عليها يوم وفاته . . لايريد أن يكتب شيئاً لى . يقول إن اخوته إذا مات سوف يطعنون فى الوثائق الرسمية بأنها تمت أثناء مرض الموت ، ويكسبون القضية . لن يمنعهم عن ذلك إلا أن تؤول الثروة إلى وريث شرعى . أريد ولدا . .

— وهل زوجك غير قادر على الإنجاب ؟

— لا أعرف .

— إن الأمر إذاً سوف يكلفك الكثير .

— أنا سأدفع لك ما تطلبه .

— سوف نضطر إلى أن نمد جلسات يومية قد تمتد إلى أسبوعين .. في حجرة من حجرات الجن .. لا تخافي .. إن الجن قوم لا يؤذون أحدا . إنهم يساعدون المحتاج وأبناء السبيل ومن في قلبه غموم .

— وكم يكلفني ذلك ؟

— إن الأمر يتطلب إعداد ولائم يومية لهم . . حتى إذا ما تحقق الحمل .. توقفت الولائم .

— وكيف أعرف أن الحمل تحقق ؟

— ليس صعبا يا فتاتي .. سوف تتوقف الدورة الشهرية .. وحينئذ تعرفين . فلا تأتين إليّ ولا نقيم الولائم وتحصلين على الوريث .

— وكم تكلفني الولائم ؟

— في كل يوم خمسمائة جنيه .

— خمسمائة جنيه .. (تسكت قليلا) ثم تعلن : أنا رهن إشارتك .

— إذاً ادخلي تلك الحجرة المظلمة وضعي المبلغ فيها وسوف تتحسسين طريقك فتجدين فراشا وثيرا . ادخلي فيه . وانتظري حتى يأتيك واحد من الجن يساعدك في محنتك .

وتدخل الحجرة . كثيفة الظلام ، تتخبط وهي في الطريق إلى الفراش . تمد يدها تتلمس الطريق . . حتى تصطدم بسرير يبدو وثير الفرش . يليق بواحد من الجن .

— أنا اسمي رحمي رضوان عبد العال . وهذه هي بطاقتي الشخصية ولم أزر القاهرة منذ مولدي إلا في هـذه الأيام . . حينما أسست شركتي في التصدير والاستيراد . ولا أعرف هذه السيدة ولم أتزوج حتى الآن .

يتسلم الضابط البطاقة ويطلع عليها . ويقول للسيدة :

— هـذه البطاقة صحيحة يا سيدتي .. وسوف نجري تحرياتنا عن السيد رحمي رضوان عبد العال . . ونتأكد فعلا من أنه من مواليد أسيوط ولم يسبق له الزواج . أما الوثيقة — وثيقة زواجك فهي منسوبة إلى رجل اسمه عثمان علي عمر .. وكما هو واضح ليس السيد رحمي رضوان عبد العال .

تصرخ المرأة بضعف :

— ولـكني متأكدة أن هذا الرجل هو زوجي عثمان علي عمر .

— على العموم . سوف نتحرى أيضا عن عثمان علي عمر طبقا للبطاقة الشخصية الواردة بقسيمة الزواج .. يبدو أنها صادرة من كفر الشيخ ، سيحتاج الأمر إلى بعض الوقت لكي تتأكدي . إن الحقيقة لا يمـكن أن تطمس .

يلتفت الضابط إلى رحمي ويقول : نطلب منك فقط بصماتك لمضاهاتها على بصمات بطاقة عثمان علي عمر المقيم في كفر الشيخ .

وتسأل المرأة على الفور :

— وواقعة سرقة ثمن العمارة الذي بعته ؟.

— يا افندم لا يمكن أن أدين أبداً الأستاذ رحمي رضوان بشيء .. فليس هو الذي تقدمت بالبلاغ عنه .

تبكى المرأة وتقول :

ـــ يا عالم .. إن رحمى هذا هو عثمان على عمر .

ـــ يا سيدتى .. لا تضيعى وقتنا .. وتفضلى الآن .

يتدخل رحمى فى الحديث ويقول :

ـــ هل أستأذن الآن .

ـــ فقط أريد أن أحصل على صورة من بطاقتك الشخصية . وتفضل لآخذ بصمتك .

يقول رحمى بهدوء :

ـــ سوف أسلم لسيادتك أيضا بعض الوثائق التى تثبت أننى أمتلك خمسين فدانا فى ديروط .. وأن لى عددا من العمارات فى أسيوط . وأن لى أيضا حسابا جاريا مفتوحا منذ زمن به ما لا يقل عن مائة ألف جنيه .

ترتبك المرأة . وتعروهـا لحظة من الذهول ، وينهض وهو يقول مادا يده بالبطاقة بعد استخراجها من حافظة نقوده :

ـــ هذه هى البطاقة فى يدك . فأرجو تصويرها . . لدى مواعيد كثيرة مع بعض العملاء فأرجو ألا تعطلنى .

ينظر إلى المرأة ويقول لها :

ـــ كم جنيها سرقها منك هذا النصاب يا هانم ؟

تقول ، وعيناها لا تزالان تتهمانه :

ـ عشرة آلاف جنيه .

يقول لها ، ولا تزال أعصابه باردة :

ـ هذه العشرة آلاف ـ كانت معى قبل موت أبى ، بل أكثر منها، فكيف تظنين أن أسرقك وأنا أملك ما يزيد عنها ؟

يخرج رحمى بعد أن يأذن له الضابط بالانصراف ، والمرأة لا تزال تجفف دموعها التى لا تتوقف عن الانهمار .

يقول الضابط :

ـ الحقيقة أنا لا أشك فى ذلك الرجل ، ولكن سوف أتحرى لك عن عثمان على عمر . . لكن لمَ لم تتقدمى ببلاغ عن ذلك منذ أن نصب عليك ؟

تقول فى ألم :

ـ تقدمت ، وثابت ذلك فى محاضر قسم بولاق .

ـ منذ متى تقدمت بهذا البلاغ ؟

ـ منذ خمس سنوات .

ـ أمعقول هذا ؟ . . إن القضية يمكن أن تكون قد سقطت بالتقادم . . ولن يتيسر رفع دعوى على هذا النصاب لو ثبت أنه عثمان على عمر . يمكنك الآن أن تتفضلى يا عزيزة هانم وسوف أتصل بك فيما بعد حينما تأتينا نتيجة التحريات .

(١١)

يدق الباب بشدة . . يفتح رحمى ليجد أمامه شهدى .

ـ أتعلمت أن تدق بهذا العنف ؟

ـ آسف يا سيدى . . حاولت أن أدق الجرس لكنى لم أكن

أسمع صوته .

- ماذا تريد ؟

- الحقيقة أريد حقي ..

- حقك ؟

- نعم .. أجرة خمس سنوات قضيتها معك .

- أجننت يا رجل ؟ .. ألا زلت تظن أنني الرجل الذي خدمته السنوات الخمس ؟ .

- ياشيخ عبد اللطيف أنا أستطيع أن أكتشفك وأنت بين مليون فرد .

- تعال .. ادخل لنتفاهم .

يدخل شهدي وقد شعر بالفخر لأنه اكتشف الرجل . ويقوده رحمي إلى حجرة الاستقبال . وشهدي قد داهمه الثراء والفخامة والأبهة التي تملأ الشقة ويقول رحمي في أناة :

- انتظرني لحظة ..

المجنون .. أيمكن أن يسافر إلى زمن ميت ؟ .. لقد تعفنت جثته ، بل لعل عظامه تآكلت الآن ، وأصبحت فراشاً مبثوثا أو دقيقا أو ترابا .

يعود حاملا معه بعض المستندات يقدمها إلى شهدي :

- هل تستطيع أن تقرأ هذه الوثائق ؟

يشيح عنه شهدي ويقول :

- أنت تعرف أنني لا أقرأ ولا أكتب .

ـ وكيف أعرف يا عزيزى ؟

ـ ذلك لأنك تعرفنى جيدا ...

ـ أنا صبرت عليك كثيرا .. لست أنا هذا الرجل الذى كنت تعمل عنده .

ـ يا شيخ عبد اللطيف أنا أفهمك جيدا .

ـ يا سيد .. أنا لست الشيخ عبد اللطيف، أنا إسمى رحمى رضوان عبد العال .. ولم أستخدمك يوما لأنى لم أغادر أسيوط إلا منذ سنتين تقريبا . وعلى العموم إذا كنت لاتثق فى كلامى فهذه الوثائق صور كنت قد أعددتها لضابط شرطة . لأن امرأة تتهمنى أنى كنت قد تزوجتها وهجرتها .. وتقول أن اسمى عثمان على عمر .

ـ عثمان على عمر ؟ ! ..

ـ يبدو أن هناك نصابا يشبهنى .. والناس تلاحقنى تريد أن تقتص منه فى شخصى .

ثم يستطرد قائلا :

ـ يمكنك أن تأخذ هذه الوثائق وتطلع عليها أحد خلصائك .. ويشهد منها أنى رحمى رضوان عبد العال وليس الشيخ عبد اللطيف الذى تزعم أنى إياه .

ـ ولكنى أكاد أحس أنك الشيخ عبد اللطيف ..

ـ أرجوك .. أنت تخرجنى عن شعورى .. سأضطر إلى إبلاغ الشرطة حتى تزيحك عن طريقى .

ينظر شهدى إلى السجادة العجمى .. ويغوص بقدميه فيها ويتأمل

قليلا ثم يعاود الحديث قائلا :

ـ المرتب لم يكن كبيرا . . ثلاث جنيهات فى الشهر ، أى ستة وثلاثون جنيها فى السنة أى مائة ثمانون جنيها فى خمس سنوات .

ـ يا رجل . . أنا غير ملزم بأن أدفع لك شيئا . والآن تفضل وانصرف لأنى أريد أن أنام .

هذا قلق ، ومصيره إلى الزوال . قلق مصيره سلال المهملات فى أى مكان يظهر فيه . ألا يعرف هؤلاء جميعا أن القمامة حينما يلقى بها فى صناديقها تختفى إلى الأبد ، وأنها تسافر إلى المحرقات ، وهناك تتبخر بقاياها مع النار المتقدة ؟ . أيسافر أحد وراءها ؟ .

{ ١٢ }

ـ أهلا . . أهلا . . أستاذ عبد السميع . من أسبوع ولم نرك فيه ؟ . وعدك بالزيارة جاء متأخرا .

يصافح وهو يقول :

ـ لم يشغلنى عنك شىء . ولكنك قلت لى إنك ستكون مشغولا ، وقد حددت لى سكرتيرتك ميعاد الزيارة . وهأنذا جئت فى الميعاد . . يا رحمى بك .

يجلس إلى مقعده الفخم وهو يقول :

ـ الحقيقة أن المواعيد تنظم حياة الإنسان . ولا تجعل أحدا يغضب من أحد .

أمعقول أن هذا منصور الخادم ؟ لا يبدو عليه تلك الاستكانة التى كانت

تميز منصورا . وصوته لا يختلف عنه؟ لكن صوت منصور كان خاضعا مستكنا أما صوته فهو واثق ومتمكن .. أنت تهذى ياعبد السميع.لكن الشبه واضح . كان منصور لايختلف عنه فى السمات لولا أن منصورا كان ذا شارب خفيف . أما عبد السميع فلا شارب له لا ولحية .

— ماذا يمكن أن أؤدى لك ؟

— أنا أعرف أن شركتك لابد أن تدخل فى عدد من القضـايا ، السوق لا تخلو من ذلك .. وأنا أتقدم طالبا أن أكون محامى الشركة .

— هل تريد أن تعمل لدينا كموظف فى الشئون القانونية للشركة أم تريد أن نكلفك بالقضايا وأنت مستقل ؟ ..

— بطبيعة الحال المحامى لا يرضى عن الاستقلال بديلا .

— الواقع أن الشئون القانونية بشركتى تتكفل بكل شىء ، ولكن لا بأس أن أعرض الموضوع على مجلس الإدارة ، وأقول لك . هل تمهلنى أسبوعا ؟

(أنا لم آت اليك طمعاً فى قضاياك . أنا مبسوط والحمد لله، لكنى جئت لأتأكد ما إذا كنت منصورأم رحمى؟ والآن تأكدت فقد كان منصور أعسر . أما أنت فأيمن .. أراك الآن وأنت تكتب بيدك اليمنى .إنك لا يمكن أن تكون منصور أبدا . ولو أن الشك لا يزال يعذبنى ؛ ماذا لو كنت تجيد التمثيل ؟).

— إذن فموعدنا بعد أسبوع ..

(وبعد الاسبوع ، لن تجد هناك علاقة قائمة بيننا .. أنا يا سيد

عبـد السميع جراح . قام يبتر يد الماضى من جسد الحاضر والمستقبل .
وقد دفنت اليد فى صحراء التيه ، ولا سبيل إلى السفر إليها .. فالصحراء
معالمها واحدة .. ومن المتعذر أن تكشف عن مكان معين فيها . وكانت
اليد عسراء تستطيع أن تفعل كل شىء . ولـكن حلت بدلا منها اليد
اليمنى الآن حتى تقوم بكل الأعمال)

ينهض رحمى مودعا الأستاذ عبد السميع عنـد الباب . فتنهض
السكرتيرة ـ هى الأخرى ـ احتراما للقادمين .

لـكن إذا كان هذا منصور الخادم.. كيف يتحول وبهذه السرعة وفى
ظرف خمسة عشر سنة .. إلى المليونير رحمى رضوان ؟ أمعقول أن
الآلاف التى سرقها منى .. ومن خزانتى تصنع له هذا الجاه وأنا فاتر الهمة
أعانى من آلام السم الزعاف . أيمكن أن يتحول بهـذه السرعة إلى
مليونير ؟ .. لا أصدق، لو كان الأمر كذلك لكانت الآلاف التى لم ينهبها
من البنك صنعت منى مليونيرا أنا الآخر . . وماذا يمنعه من مواصلة
اختلاسه من الآخرين بنفس القادر دون أن ينكشف ؟ . شىء يحير
حقاً يا عبد السميع .

﴿ ١٣ ﴾

يسعل سعالا عصبيا يكاد يهد كل كيانه . ويستنشق من أنبوبة الأكسجين
بعمق .. حتى يهدأ . نوبات الربو قاسية لا ذنب لك فيها يا ذهنى .
الا تفتش فى الماضى وتعرف أسباب هذه الأمراض وتلك العلل التى ابتلاها بك
ربك ؟ . . . أبسبب هذه الـكراهية التى استمرت بينك وبين إخوتك

حينما فضل أبوك أمك على أمهم ، وخصها بجزء كبير من الثروة ، قبل أن ينتقل إلى رحمة مولاه . وهل الكراهية هي التي تخلق حالة الربو ، وتؤثر في قوة القلب ، وتكاد تقتل وظائف الكليتين وتملؤهما بالحصا ، ولا تنقذك إلا العمليات المستمرة لتفتيت الحصا ؟ .. أتكون الكراهية هي التي تخلق هذه الأزمة ؟ اذ تأزمت النفس ، فيختنق الصدر ، وبالتأزم المستمر يبدأ الربو في التكوين ، ويتوالد ويفرخ ويتشعب حتى يمتلك الصدر كله .. وينقل جرثومته إلى القلب فيضعف ، وإلى الكليتين فتتراخيان عن أداء وظائفهما . أتخرف يا ذهني ؟ . ماذا إذن أقول ؟ .

تسأله سامية :

— في أي شيء تسرح ؟

— أبداً .. أفكر في المشروعات والعمل .. إنني كنت قبل أن تنجحي هشاما لا أشعر بأي حماس للعمل . أما الآن فإن الحماس يملؤني . أشعر أني أعمل لفلذة كبدي . ولا أعمل لإخوتي غير الأشقاء الذين يتمنون موتي بين يوم وآخر .

تقول بامتعاض :

— لا أعرف ما السبب في أنك دعوتهم في عيد ميلادك ...

— كيدا وغيظا . أريد أن أقول لهم ها أنذا لازلت حيا . وانظروا إن وريثي الذي حجبكم لايزال يعيش . فماذا تنتظرون؟ .. أتنتظرون أن يموت واحد منا ؟

— بعد الشر عنكما .

لولا كراهيتك لهم . لما رضيت بهذا الموقف .. أنت تعلم أن هشاما ليس ابنك ، لأنك غير قادر على الإنجاب ، وهم لا يعرفون أنك غير قادر وإلا فتمسكوا به بعد موتك . بل فتمسكوا بها تلك الخائنة » .

آه لو عرفت أنه ليس ابنك فماذا أنت بفاعل ؟ . . أتبتغين أن تكررى المأساة من جديد ، تريدين الاتصال برحمى مرة أخرى . تحلمين أنت بالليالى اللذيذة التى ولت ، وترهبت بعدها ، ووخزك ضميرك كثيرا ، فاستسلمت لإشعاعاته الفتاكة . والآن هل مات ذلك الضمير ؟ . . أريد فقط أن أعرف ما إذا كان رحمى هو الشيخ عبد اللطيف أم لا ؟ . . وماذا سيفيدك ذلك ؟ . . وكيف تتأكدين ؟ .. هل لو سألته : أأنت الشيخ عبد اللطيف ؟ سيقول لك نعم أنا يا حياتى . أنت تريدين شيئا آخر . ترومين العودة من جديد إلى الوحل ، وتلطيخ شرف الرجل الذى أكرمك . أو لعل هوى العودة إلى اللذة لا يزال يطاردك . وأنت تعرفين أنها التفاحة المحرمة عليك . . أمن المعقول أن أبقى هكذا راهبة فى سجن هذا الرجل العليل ؟ . .

الحجرة سوداء مظلمة ـ كنت تتحسسين طريقك إلى الفراش وقلبك يدق بعنف . أنت تعرفين . لا أنت لم تكونى تخشين الجن الذى وعدك به الشيخ عبد اللطيف . أنت كنت تعرفين أن القادم إليك هو الشيخ عبد اللطيف نفسه . لقد انفتح باب فى جهة أخرى من الحجرة ، ودخل رجل . . عرفت هيئته . طويل مثل الشيخ . عريض مثله . بل عرفت ذلك من تلك اللحية المدببة التى اخترقت عنقك ، ومن هذا الشارب الكث

الذى افترش شاربك الأملس . وتلك اليد القوية - لا اليد المرتعشة التى تصادفك فى بقايا أيامك - التى هصرتك إلى الجن القادم . يا له من جن حقا ؟ .. أتعود هذه النار المستأنسة إليك مرة أخرى يا سامية ؟

وتصمم أن تذهب لمقابلته ، لاأهمية أن يكون هو الشيخ عبداللطيف ، ولا أهمية أن يعرف أن هشاماً ابنه . المهم أن يحل بدلا من الشيخ عبد اللطيف .

(١٤)

قال لها الضابط :

- دلت تحرياتنا يا عزيزة هانم أن السيد رحمى هو ابن رضوان بك عبد العال من أعيان أسيوط . وأنه يملك فعلا خمسين فدانا فى ديروط . وله أموال طائلة فى البنوك وأن له عمارتين فعلا فى أسيوط . . كما دلت التحريات أن عثمان على عمر هو فعلا من مواليد كفر الشيخ وأن له بطاقة شخصية بهذا الاسم صادرة من القسم . ولكن لا أحد استدل على عنوانه. والعنوان الذى ذكر فى بطاقته ثبت فعلا أنه كان مقيما فيه ، ولكنه غادره منذ ما يقرب من خمسة عشرة سنة ولا أحد يعرف أين استقر وما هو عنوانه الجديد . . الحقيقة يا مدام عزيزة أننى قمت لك بهذه التحريات خدمة شخصية فقط . ذلك لأن الدعوى الجنائية سقطت بالتقادم ولكن لم يكن هناك مانع من الاستمرار فيها ، فربما أن الأستاذ رحمى كان هو فعلا ذلك المدعو عثمان على عمر ، فتكون فى ذلك جريمة جديدة هى انتحال شخصية . . ولكن ثبت أن الاثنين ليسا

شخصا واحدا . ثم إن بصمة عثمان على عمر ليست هى بصمة رحمى رضوان عبد العال، وقد ضاهينا البصمة على بطاقة عثمان الشخصية وبصمة رحمى فلم نجدها واحدة .

يتكلم الضابط بثقة — وعزيزة مذهولة للغاية . ثم تنطق بصعوبة قائلة :

ـ عجيبة أن يكون الأستاذ رحمى بهذا الشبه الغريب بينه وبين عثمان على عمر .

يناولها الضابط صورة ويقول :

ـ أليس هذا عثمان على عمر ؟

تتناول الصورة بخوف وتقول :

ـ نعم . . نعم . . هو . .

يقول الضابط :

— حقا إنه يشبه الأستاذ رحمى . . ولكن الفارق أن عثمان كان بشارب . أما الأستاذ رحمى فهو حليق الشارب .

— وما الذى يمنعه أن يحلق شاربه ؟

يتحسس الضابط شاربه ، ويقول :

— عادة ذلك الذى يطلق شاربه لايجرؤ على حلقه ، اسأليني .

تضحك عزيزة وتقول :

— حينما يشيب الشارب يحلقه العجوز .

ينهض الضابط ليصالحها فتقول بلهجة بلدية بولاقية :

— عوضى على الله فى نقودى التى ذهبت هباء .. وماذا أفعل الآن ؟

يضع يده فى يدها ويقول :

— يمكنك طلب الطلاق من المحكمة بسبب غياب عثمان على عمر عنك هذه المدة .

تسأل عزيزة قائلة :

— وأين الأستاذ رحمى لأعتذر له .

يقول الضابط :

— أنت تعرفين مكتبه الذى دخلته عنوة .

﴿ ١٥ ﴾

— جئت اليوم لأعتذر لك عما بدر منى من إساءة .

— لا يا شهدى . لقد التبس عليك الامر ليس هناك داع للاعتذار .

— يا افندم لقد أطلعت الكثيرين على الوثائق التى قدمتها إلىّ .

وأجمعوا جميعا على إنك لست الشيخ عبد اللطيف التائب ؟

— نعم ..

— وهل كنت تعمل لديه فى بيته أم سائقا لسيارته ؟ .

ينظر شهدى إلى رحمى بإمعان ، والشك يرقص فى عينيه ، غير أنه لا ينساق وراء الشك ويقول :

— كنت أعمل خادما لديه .

— إذن فتركك له أو تركه لك كان مصلحة لك .. إذ انتقلت من خادم إلى سائق .

ـ الحمد لله . لقد أعملت فكرى . وقلت لنفسى أستبقى هكذا خادما يا شهدى ؟. يجب أن تكون حر نفسك . وليس أكثر حرية من أن تكون سائق سيارة أجرة . .

ويقطع شهدى حديثه ويقول :

ـ حقاً لم لا تشترى لك سيارة وأكون أنا سائقك الخاص ؟ .

ـ أتريد أن تلدغ من الجحر مرتين ؟ .. ربما تعمل عندى وأختلس عرقك يا شهدى .

يرتبك شهدى ، ويكاد يصدق أنه الشيخ عبد اللطيف ، غير أن كلمات رحمى تخفف من حدة شكه .

ـ أنا أعصابى لا تساعدنى على قيادة سيارة . . ثم إن عملى قريب من بيتى فلا أهمية للسيارة . ونادراً ما أخرج بعد العمل .

يسأل شهدى بفضول :

ـ وماذا تعمل يا سيدى ؟

ـ أبدا . . أنا مدير شركة .

ثم يسأله رحمى :

ـ وماذا كان يعمل الشيخ عبد اللطيف يا شهدى ؟

ينهض ويقول شهدى بارتباك :

ـ لا أهمية لذلك .

(يا غبى . . أتريد أن توقظ الموتى ؟ . .الموتى لا يبعثون إلا يوم القيامة ولايبعثهم واحد مثلك فالموتى يا شهدى يختفون فى الاجداث،

وتستمر الأجداث مغلقة إلى أن تفتح لتلتهم موتى جدد) .

ينظر شهدى إلى رحمى ، وينهض وهو يقول :

— أستأذن إذن يا رحمى بك .

— مع السلامة يا شهدى .

(يبدو أنى لا أصدق ماذا تكون ؟ . . أنت ممثل كبير . كنت تمثل فى اليوم على عشرات النساء والرجال . وتوحى لهم أنك شيخ لك صلة بالجن والعفاريت ولك قوة سيطرة عليهم . فكيف لا تدعى الآن أنك رحمى بك ؟.. ولكن يا شهدى لقد قرأ لك الناس كل المستندات التى قدمها لك.ألا تقتنع ؟.. كيف يكون ابن الرجل المسمى رضوان عبدالعال نصابا كبيرا ؟.. وكيف يكون ذلك وهو مقيم فى أسيوط ؟ هل هو من أهل الخطوة يا عالم؟.. كيف أكذب إحساسى وأصدق بعض الأوراق ؟..)

يغادر شهدى الشقة . ويعود رحمى إلى حجرته . الجنون يريد أن يكشف المستور . والمستور بينه وبين الوضوح حاجز . والحاجز كثيف لايبين . كيف يتسنى له أن ينفذ منه ؟ النفاذ أمر مستحيل . ينظر رحمى إلى المرآة ويتأمل وجهه . كان يجب ألا يكون الشكل واحدا . لم يكن يكفى أن يكون الوجه ذا شارب أو شارب ولحية أو بلا شارب ولحية. كان يجب أن يكون حليق الحواجب أو تكون هناك ندبة مميزة فى الجبين ، أو شيئا من هذا القبيل . لم تكن تعرف بعد فن الإخفاء . لكن المثل السائر أن الله يخلق من الشبه أربعين قد ساعدك كثيرا . ويبدو أن المثل اخترعه نصاب عالمى .

تدخل حجرة السكرتيرة ، والخجل يجعلها تتعثر فى مسيرتها ، جاءت لتعتذر لهذا الرجل الذى ألصقت به تهمة خبيثة .

تسأل السكرتيرة بأدب :

— هل رحمى بك موجود ؟

تنظر إليها السكرتيرة شزرا ، وتقول :

— ولم لا تحاولين الدخول عنوة ؟

تقول عزيزة والأدب يقطر عسلا من شفتيها :

— جئت فقط لأعتذر له .

— سوف أسأله إذا كان يسمح بدخولك أم أنه مشغول .

— تفضلى .

— تفضلى بالجلوس .

(انت بنت بلد يا عزيزة ، وإذا أخطأت فى حق إنسان ، فيجب أن تبادرى بالاعتذار له . أهذا حقا ما ترمين إليه يا عزيزة ؟. أراهن أنك تريدين أن تعيدى الصلة من جديد بينك وبين رحمى .. أن يعود عثمان على عمر مرة أخرى إليك ؟.. أنت لم تنسى أيامه . رغم انه كان عاطلا وانتشلته من بطالته . وفتحت له بيتك . . وعاش معك زهاء خمس سنوات من أحلى سنوات عمرك . وأنت التى بعت العمارة وقدمت إليه نقودها ليتاجر بها وتظنينه يتاجر بنقودك . هذا الرحمى قد ورث عن أبيه الكثير . كيف يمكن أن يكون وارثا ثريا ونصابا فى نفس الوقت؟!.

أيمكن أن ينظر رجل بهذه المواصفات إلى بنت بلد مثلك ؟ وما المانع ؟ .
إذا دق قلبه ، فإنه سيجرى وراء دقاته ، حتى يدخل علىّ .

تأتى السكرتيرة وتقول باستياء :

ـ تفضلى يا ستى .

يفتح الباب ليستقبلها رحمى بابتسامة . وتذوب من الخجل .
وتدخل معه إلى مكتبه . وتقول بأدب :

ـ جئت لأعتذر لك عما بدر منى فى حقك .

يقول ، وهو يجلس إلى مكتبه ، ويسمح لها بالجلوس فى مقعد وثير :

ـ الحق أنت معذورة فالرجل يشبهنى شبها غريبا لولا هذا الشارب الذى أرفض أن أضعه على وجهى منذ وعيت فى الدنيا لكن الحمد لله أن رأيتى قد ثبتت .

ـ الغريب أنك تشبهه جدا .

ـ المهم .. عليك الآن أن تتخلصى منه . وتطلبى الطلاق . عندى محامى هنا فى الشئون القانونية يمكن أن يباشرلك دعوى التطليق . ومن السهل جدا وقد اختفى زهاء خمس سنوات بالإضافة إلى أنه سرق أموالك وهرب أن تتخلصى منه . هل تريدين؟أم أن العشرة لا تهون عليك ؟

ـ لا . . لا . . أنا لم أعد أطيق ذلك المخادع . . لعنة الله عليه . .

تتأمل قليلا وقع كلماتها عليه ، ولكن لا تجد لها صدى فى نفسه .

ـ هل أطلب لك المحامى ؟

ـ لا مانع .

يضغط على زر الدكتافون ويقول للسكرتيرة :

- الأستاذ عبد العزيز يا سلوى .

تقول عزيزة :

- والله سلوى اسم حلو . كنت أتمنى أن يكون اسمي كذلك .
وليس السفيرة عزيزة .

يقفل الآلة ويقول :

- سوف أتكفل أنا بمصاريف القضية .

- لا .. لا .. أنا قادرة .. لا تظن أنه نهب أموالي كلها .. لقد بعت عمارة واحدة فقط . كنت أريد أن أصنع منه رجلا . . ولكنه فضل أن يكون لصا . تتأمله بامعان لعله يهتز ، أو يرتبك ولكنه ثابت صارم .

- على العموم هو الذي أراد لنفسه ذلك . تحوّل من رجل إلى نصاب .

- ماذا تظن أنني فاعلة به لو رأيته ؟

يضحك ويقول :

- لابد أنك سوف تحلقين شاربه .

- سوف أمرغ به الأرض .

يقول بلا انفعال :

- يا ساتر . . يبدو أنك قوية .

تنتظر المحامي أن يدخل . وتتأمله : يا اخواتي إنه الخالق الناطق . أمن الممكن أن يكون هناك شبه بهذه الدرجة من الدقة والإتقان . أنا لا أصدق . . لكن كيف يكون نصابا وله هذه الأموال الطائلة وابن أكابر ؟ تحملق فيه ، وهو يقرأ مذكرة أمامه . وتسأله فجأة :

- هل أنت متزوج ؟

يقول بسرعة :

- لا . . ليس لى طريق فى هذه السكة .

تقول متسائلة :

- وماذا يمنعك؟ لقد كبرت ..

يقول كأنما يحفظ ما يقوله :

- زوج أبى كثر الله خيرها . . جعلتنى أرفض أن أدخل طريق الزواج . الحقيقة كرهت النساء . . خصوصا أن أمى ماتت وأنا صغير ، فلم أشعر بحنان الأمومة ، وبالتالى لم تكن لى صلة بالنساء عموما . وحينما تزوج أبى . وعاملتنى زوج أبى بهذه الطريقة ، بغضت النساء بغضا شديدا . حقا خفت هذه البغضاء إلى حد ما .. لكن لم أندفع فى طريق الزواج .

تقول وهى حائرة :

- يا لك من صريح . كان الله يجحمه فى أى مكان يذهب إليه . . ملتوياً . . وكان التواؤه فى صمته الطويل .

- من هو ؟

- عثمان على عمر ... الله يرينى فيه يوما .

(يريك . يرى الآخرين . مهما دعوت ومهما امتلأ قلبك بالحقد والكراهية . فقد انفصلت صفة الماضى عن صفة الحاضر . وأصبح الجسر الذى يربط بينهما مهدما . ذلك الجسر هو ذلك الزمن الميت الذى تبحثون عنه ولن تجدوه ، لأن أشلاءه جمعت ، ودفنت فى صحراء لا يعرف لها

حققتني أثر مكانا .

يدخل المحامي بعد أن يطرق الباب .

﴿ ١٧ ﴾

دلفت إلى مكتبه ، وكان قد انتهى من لقاء الشركاء ، وانفض مجلس الإدارة ، وأصبح فى حاجة إلى أن يشرب كأساً من عصير الليمون ، فشاركته فى كأس أخرى .

وتقول كأنما تحدد هدف الزيارة :

ـ كنت أمر من هنا ، وفوجئت باسم شركتك ، فقررت أن أصعد لأعاتبك . ذلك لأننا ـ أنا وزوجى ـ لم نرك منذ حفلة عيد الميلاد .

يرد عليها قائلا :

ـ ربما لا أكون قد رأيتك فعلا يا سامية هانم ، غير أنى أجتمع كثيرا مع الأستاذ ذهنى ، وتتم بين شركتى وشركته صفقات كثيرة للتصدير . فهو يقوم بتصريف المنتجات الزراعية فى داخل البلاد ، وأنا أقوم بتصريفها خارج البلاد .

ماذا تقول له بعد ذلك ؟ من أين تبدأ ؟ . . كيف تدعوه إلى الأيام الجميلة التى لازالت تعيش على ذكراها ؟ . . وتلتفت إليه :

ـ لكن هذا لا يمنعك من زيارتنا .

يقول على الفور :

ـ الحقيقة أن نشأتى الأولى كانت السبب فى إحجامى عن الزيارات . لقد تحكمت زوج أبى فى القصر بطوله وعرضه ... فى أسيوط . وجعلت

لى جناحا مستقلا عنه ، وجعلت لى منفذا أدخل وأخرج منه ، ومنعت عنى أية اتصالات بالناس ، بل منعت اتصالى بأبى . كانت سيدة جبارة ، وكنت أنا صغيرا . ولم أستطع أن أقاومها . بل كان أبى منساقا وراءها ولم يحاول أن يرعى فلذة كبده — كما يقال .

تقول بأسف :

ـ ياه .. إن صباك كان مفعما بالحرمان .

ـ يستطرد قائلا :

ـ هكذا تربيت على هجر الناس . ولم تكن لى صداقات . أفلا تعذريني ؟

تقول على الفور :

ـ أما وقد كبرت فإنك أصبحت تعرف أن هذا لا يفيدك .

يضحك ويقول :

ـ أنا نبات تربى على امتصاص الماء المالح ، فهل تعتقدين أن يأتى يوم يستسيغ الماء القراح .

ـ حاول يارحمى بك .

(إذا كان هذا صباه . فما بالى لا أسأله عن شبابه . قد يذل لسانه ويعترف أنه كان الشيخ عبد اللطيف .) تسأله :

— وأين قضيت شبابك ؟

يقول :

— للأسف . لم أخرج من أسيوط . بل لم أخرج من الشارع الذى

يقع فيه قصر أبي . بل لعلي قضيت أكثر أيامي في جناحي المنزل من هذا القصر .

ـ حياتك غريبة . . لذلك لم تكن لك أية اتصالات بالأولاد الذين في بيتك .. أو حتى عذارى قريبات منك .

يقول على الفور :

— نعم .. هذا نعم الحكم .

(إذن فأنت على استعداد الآن أن تشرب من نهر العسل . وأن تنام على فراش الحب . وأن تبعث في نفسي البركان الذي انطفأ . كيف أدخل إليك ؟ . .) .

تنهض وتقول :

— إذن أتركك لعملك . . لقد عطلتك . . ولو أن قصة حياتك مشوقة . ولو أني لم أسمع إلا خطوطا باهتة منها . ويجب أن أسمع بقيتها .

يقطع الصلة وهي جنين ، فيقول :

— لا أعتقد أنها تستحق أن تسمع من جديد .. فتفاصيلها هي تلك الخطوط الباهتة .

يسقط في يدها وتغادره حتى دون مصافحة . لا تريد أن تلمس يده، إنه لا يشجعها على أن يلتقيا . أهو مؤدب لهذه الدرجة ؟ . . لا يمكن أن يكون هـذا هو الشيخ عبد اللطيف الجريء البركاني المتفجر . . الجن المصنوع من النار !

أنت لا تدرين أنني في مرحلة تصفية الماضي بكل ما فيه من شوائب .

لا يمكن أبداً لزمن ميت أن يعود مهما كان له ارتباط بالحاضر، وإن أصبح لإنسان أن يسافر إليه .

﴿ ١٨ ﴾

الطائرة ترتفع إلى كبد السماء ، وهو جالس فى الدرجة الأولى يقرأه. أنت معلم نفسك يا رحمى . بل علمك منصور الخادم فى منزل الأستاذ عبد السميع فاضل . كنت تقاوم لهجتك الصعيدية عنده بالصمت . وعلمت نفسك لهجة أهالى القاهرة بالتدريج . بل لعلك أتقنت لهجة أهل بحرى من تلك الخادمة المسيطرة على منزل عبد السميع فاضل . ورغم سيطرتها على الأستاذ الوفدى الطباع ، لكنها لم تكن إلا رحيمة بك . امرأة معقدة حقاً ، ولكنك تعلمت منها فن التمثيل ، تكره الأستاذ وتحبه ، تصطنع الحب وقت الكره ، وتصطنع المودة وقت الجفاء . لكنها كانت معك لا تصنع شيئا ، كانت تعدك للذاتها . لم تكن تدرك أن منصور البحراوى ذلك الفق يكنز أبوه مال الدهر وأن زوج أبيه خامته من قلبه. وعزلته عن الناس . وأخذت تسيطر على قصره . وتتصرف فى أمواله ، لكنها لم تبددها . ولم يكن أمامك يا رحمى إلا أن تهجر هذه الحياة الكئيبة . وتركت المدرسة ، ولم يسأل عنك أحد . تركتها وأنت لم تتجاوز الثالثة عشرة . وحينما ضمت فى القاهرة ، لم تجد غير أن تعمل لدى هذا المحامى. صاحب المبادىء الثورية الوفدية . أحد تلاميذ حزب الوفد المعروفين : صاحب الأطيان والعزب . وفى نفس الوقت ، يضم إليه أطيان أولاد إخوته القصر . طويل القامة كأنه شيطان . لا يحلق شعر رأسه ولا يقرب لحيته إلا لماماً . حينما تجبره خديجة على حلقها . فى الصباح

يعاملها بقسوة ، وفى المساء يركع تحت قدميها . لا يرضى أن يضمها إلى حياته ، وفى الليل يطلب منها أن يكون بعيدا عن هامش حياتها . وقد ارتضت خديجة هذا الوضع . فهى كانت ولا تزال وستبقى مديرة منزل . ورغم أنه تخرج من كلية الحقوق ، وقد استمر فيها زمنا طويلا ، إلا أنه لا يزال يُدعى زعيم الطلبة . بل كان يقود مظاهرات الطلبة ضد ابراهيم عبدالهادى والنقراشى حينما انفصل عن الوفد . ويعمل بالمحاماة ، وإن كان إيراده منها قليلا . لقـد كانت الأرض الزراعية البكر مصدر أمواله . وهذه العمارات التى طفق يبنيها واحدة بعـد الأخرى .. وهو يدرى ألا وريث له . يعيش عيشة متواضعة رغم هـذه الآلاف التى يضمها فى خزانته .

كانت تتركك خديجة فى أواخر الليل تقرأ فى كتب القانون . وتدخل هى لتدليل مخدومها ودعكه . ولعلها تجد مشقة فى هذا الجرم الهائل . لعلها لو كانت على قيد الحياة لمـا تنبأت أبدا أن منصور الخادم يمكن أن يركب طائرة متجهة إلى المانيا وتذكرته بالدرجة الأولى .

لولا هذه السنوات الخمس التى قضيتهاتقرأ ، لما تعلمت شيئا فى الحياة. لقد عرفت دنيا القانون من مكتبة الأستاذ عبد السميع فاضل . لقـد اكتشفت أن المرأة تدبر جريمة نكراء ضد عبد السميع . كانت تدس له السم . وكانت قدراتك الإجرامية قد ترعرعت . ففضلت أن تفوز أنت بالغنيمة قبل أن تفوز خديجة . وكنت قد تعلمت كيف تفتح الخزينة ، ولم يكن بها تلك الأرقام الخرافية الحالية ، كانت فقط تفتح بمفتاح كبير

كأنما كبره سيحميها من السرقة . ولم يكن أمامك إلا أن تنهب الأموال ليلا وتمضى . وقد بلغت سن الثامنة عشر من عمرك . ولا تدرى ماذا حدث بعد ذلك للأستاذ عبد السميع وعلاقته بخديجة . ويبدو أنه أنقذ نفسه من السم ، ويطارد رحمى ظناً أنه منصور .

لم يكن خير مكان لدفن المبلغ المسروق فيه ، غير هذا الجناح المنعزل في قصر والدك . كنت تظهر أمام الخدم والناس من حين لآخر . تسافر من القاهرة إلى أسيوط . ولكنك في هذه الأيام قبعت طويلا في الدار تفكر : ماذا ستفعل بالمال المسلوب ؟ ...

تركت المال . واتجهت إلى الوجه البحرى . تبحث عن ملاذ لك . وهناك وضعتك المقادير في منزل عبد الونيس الفحل بكفر الشيخ . وعرفت نبأ ابنه من زوجه عثمان على عمر . ذلك الولد الذى رفض بإباء أن تتزوج أمه من عبد الونيس الفحل . وصمم على أن يهجرها ويهجر المركز بأسره . وقيل إنه رحل خارج البلاد متجها إلى بيروت وكانت وكالة عبد الونيس الفحل تحتاج إلى ساعى فانضممت إليها بهذه الصفة . وبدأت تلعب لعبتك الكبرى . واستوليت على شهادة ميلاد عثمن . بل استخرجت بطاقة باسمه وفى نفس الوقت تلصق بها صورتك . أصبحت يا رحمى اسمك « عثمان على عمر » . ولم يدر أحد . لم تكن تريد أن تستعملها . كان اسمك فى ذلك الوقت عبد السلام الدسوقى . . وقلت إنك من مواليد دسوق وليس لك بطاقة . خدمك فى ذلك رقيب تقرب إليك حينما استحلفته أن يستخرج لابن السيدة أم عثمان بطاقة وأعطيته

صورتك . ولم يلتفت الرقيب إلى الصورة بل وضع بصمته بدلا منك على البطاقة وفى وثيقة الحالة الجنائية مقابل خدمات من وكالة عبد الونيس الفحل . وهكذا غاب على الشرطة أن تتعرف على رحمى من بصمة عثمان لأنها لم تكن بصمته .

أأقول لك ماذا فعلت بعبد الونيس الفحل ؟ . لقد خنته مع امرأته . وكان متاعها فى يديك ، فسهل ذلك عليك الاستيلاء على أوراق عثمان على عمر . كانت امرأة لا ترضى أن يهجرها الرجال . وحينما توفى زوجها ألقت بشباكها على عبد الونيس الفحل . ولكنه لم يكن كافيا . فاستجارت بعامله عبد السلام الدسوقى لينقذها من الأتون الذى يشتعل فى صدرها . وهكذا دخلت بقدميك فى نطاق جريمة جديدة اسمها الخيانة الزوجية .. بعد أن اقترنت من قبل الجريمة السرقة .

لكنك للأسف لم تضبط ، فقد كنت تترك الوكالة لتؤدى خدمات لسعادة الزوج المدللة . وكانت تعطيك ثمن سعادتها أموالا طائلة ، تجرها من حساب زوجها المسكين . . خيانة مقابل أجر . وأنت تحمل الأموال كل شهر . تدعى أنك مسافر إلى دسوق . . إلى آلك . وتسافر إلى أسيوط لتودع الأموال فى الجناح المعزول . حتى خشيت أن تنقض عليك زوج أبيك وتستولى على كل ما جمعته . فأودعته بالبنوك تحت اسم رحمى رضوان عبد العال ابن وجيه أسيوط رضوان عبد العال . صاحب الثروة المتجددة . فكيف لا يودع ابنه فى كل شهر مائة جنيه وفى بعض الشهور مائتين وفى شهور أخرى ثلثمائة جنيه .

يبدو أنك أتقنت الخروج عن الصراط المستقيم . فلم تقتصر على خيانة

ولى نعمتك الجديد . إنما ...

ويسمع صوت المضيفة تقول له :

— الأستاذ ... يرغب فى شراب معين ؟.

— إذا سمحت لى بكوب ليمون مثلج .

وينتظر حتى تأتى المضيفة بالكأس .

ويذهب فى سبات عميق . . أنت تعودت أن تنام فى السيارة العمومية . تعودت أن تنام فى القطار الذى يحملك من كفر الشيخ إلى أسيوط . تعودت أن تنام فى المحطة وأنت تنتظر القطار لتسافر . وها أنت تعودت أن تنام قبل أن تسافر إلى الزمن الميت . . حتى لا تسافر إليه .

(١٩)

فى الفندق يكون الحجز لجناحه الخاص معروفاً لدى المستقبلين . وتكون البرقيات قد رحلت إلى أصحاب الأعمال ليلتقوا به . جاء إلى هنا حتى يوسع من نشاط شركة التصدير والاستيراد . . وفى نفس الوقت يشترى سيارة مرسيدس ليعود بها إلى القاهرة . يسافر من فرانكفورت عبر النمسا إلى إيطاليا . وفى فينيسيا يستقل الباخرة إلى الاسكندرية . لقد أتقن القيادة فى القاهرة . كان يسخر من شهدى وهو يقول له : إن أعصابه تخونه وهو يقود ، وإن البيت قريب من العمل فلا حاجة به إلى سيارة . كان لايريد أن يرى شهدى فيذكره بالماضى ، فيغتم . وكان لا يريد أن يرى عبد السميع فتطحنه الذكرى طحنا ، ولا يتمكن أن

يفلت من رحاها . انصرفت مشيئته على أن يشاهد سامية ، فهى تذكره برجل أراد أن يقتله قتلا كاملا ، ويخفى ذكراه إلى الأبد اسمه الشيخ عبد اللطيف التائب . وكان يرغب عن الإحساس بوجود عزيزة فى حياته مرة أخرى ، فذلك قدر أراد إلغاءه ، وجعل المحامى يطلقها من عثمان على عمر ، حتى لا تكون لها صلة به إلى الأبد . لقد بتر يد الماضى السمراء من جسد الحاضر والمستقبل ، ودفنها ، ولا سبيل لأحد الأطباء أن يعيدها من جديد إلى الزمن المتحرك .

وفى المساء يستقبل أصحاب الأعمال فى بهو الفندق ، ويمضون إلى عشاء عمل . أمن الممكن لأحد أن يصدق أن منصور الخادم ، أو عبد السلام العتال أو عثمان العاطل هو هذا الوجيه الأمثل الذى يجالس هؤلاء الرجال . وبينهم مترجم من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية استأجره أصحاب الأعمال ليتفاهموا مع مدير شركة التصدير والاستيراد المصرية .

﴿ ٢٠ ﴾

فى الطريق الطويل العريض إلى النمسا ، اندفع بسيارته إلى المائة والأربعين كيلو متر . . هذه أول مرة يقود السيارة بهذه السرعة ، تعلم القيادة بإتقان فى مصر ، وقاد عددا من السيارات المستأجرة ثم أعجبته السيارة المرسيدس . مريحة . وفخمة . لقد انبهر الألمان من معلوماته . وهم لا يعرفون أنه جمعها من قراءات مختلفة قام بها قسم المشتروات والمبيعات بالشركة والأقسام القانونية والتجارية وغيرها . حافظته لا تخونه

أبدا . يا ليته دخل وتعلم بالمدرسة . ولكنه عارض زوج أبيه لأنها أرادت أن يطيعها ويذهب إلى المدرسة . وحينما اشتدت معارضته لها — وأبوه يقف حائرا بينهما — حكمت عليه بالعزلة الأبدية . كان يكفى أن تلقى له بمصروف فى ظرف من تحت باب جناحه المنعزل . ترسله مع خادم أمينة ولا تراقبه لا من بعيد ولا قريب . وتحرم على أبيه الاتصال به . إن المشاحنات والمناكفات بينهما صنعت العزلة بسرعة بينه وبين أهل القصر . ولولا مكتبة الأستاذ عبد السميع لكان الآن أميا جاهلا . ولو أنه الآن يعتبر قارئا مثقفا . غير إن ثقافته عاونته على إتقان التحايل على الناس . تحايل فى البداية بتقليد اللهجة البحراوية مستمداً إياها من خديجة الدمنهورية . وادعى أنه من المنوفية حينما عرف أن الأستاذ عبد السميع من بنى سويف . وتحايل بالصمت حتى لا يزلف لسانه بمعلومات ترشد عن شخصيته ، رغم تفاهتها . لكن تلك الشخصية لو اكتشفت لعثرت الشرطة عليه ، وهو فى أسيوط ، يخفى سرقته ، واستمر يتحايل حتى بلغ أم المأمون . . صديقة أم عثمان . . جاءت إليها تسعى أن تدلها على شيخ يصنع لها حجابا ليوهبها طفلا . ودلتها على الشيخ أبو خطوة فى دسوق . بلد عبد السميع الدسوقى . وأسقط وقتها فى يده . كيف تخرج من هذه الورطة يارحمى ؟.. أنت لاتعرف دسوق ولاتعرف شيئا فيها . وأكد أنه ليس من دسوق نفسها إنما من بلد بجوارها اسمها شبراخيت . أبوه كان من دسوق وهاجر منها ، وكان قد سمع يوما واحدا يقول ذلك على المقهى فالتصق اسم القرية برأسه ، ولم يبرحها .

واستعمل الحيلة . وقاد أم المأمون التى ليس لها ولد اسمه المأمون إلى الشيخ أبو خطوة .

أعجبته طريقة الشيخ . وكان يستقبل الناس فرادى . ولكنه أذن واستقبلها بالفق الذى كان معها . وقال لها الرجل فور دخولها :

— زوجك مربوط يا أم المأمون .

ذهلت أم المأمون — غير أن رحمى لم يذهل . كان قد سمعها تهامس مع امرأة — يبدو أنها من أتباع الشيخ — نقلت إليه كل المعلومات . وأوصاها الرجل ألا تستقبل زوجها المتغرب إلا فى الظلام . . وألا تتصل به إلا فى الفجر . . وغمز لرحمى أن يفهم . وحل رحمى مكان الزوج المهاجر فى رحلة من رحــلات التراحيل . ولم تشعر أم مأمون إلا ومأمون يتحرك فى أحشائها . وعاد الرجل بعد أيام من الترحيلة ، وشعرت أم مأمون بما ارتكبته فى حق زوجها ، غير أنها كتمت سرها ، وظنت أن الشيخ أبوخطوة هو الذى دخل عليها، لم تعرف أنه عبدالسلام الدسوقى عامل التاجر عبدالونيس الفحل . وكانت تعليمات الشيخ أبوخطوة فى هذه النمزة التى غمزها لرحمى ، هى أول خطوات تعلمه الدجل والشعوذة .

وعثر وهو فى كفر الشيخ على كتاب أصفر لأبى معشر الفلكى ... وكتب أخرى خاصة بالطب والتطبيب عند القدماء . . واستغرقته القراءة حتى كاد ينسى عمله .

وتوقف عن السير فى الطريق الطويل. فقد آن الأوان أن يأكل، ويحث

عن إشارة إلى مطعم ، غير أنه لاحظ إشارة إلى قرية : هنا يمكن أن نجد مطعما ، ولا أهمية أن يكون فخماً أو غير فخم . لقد أكلت الكثير فى هذه المطاعم المتناثرة على طول الطريق . يوم حملت كتبى — كتب السحر والشعوذة — تاركا كفر الشيخ بلا رجعة . . والجنين يتحرك فى رحم أم المأمون . والرجل الفقيرزوجها ينتشى من الفرح ويعاود من جديد السفر إلى مديرية التحرير للعمل فى الأراضى المستصلحة هناك . هنا وضع بذرته فى كفر الشيخ . وهناك يرعى البذرة الأخرى حتى تترعرع . فلاح هو فى المدينة والريف . ولم أركب يومها القطار عائدا إلى القاهرة . ومن القاهرة إلى أسيوط . صممت أن أستقر فى قلب القاهرة . وأن أضغ عصارتها فى جيبى . . من هؤلاء النسوة والرجال الموتورين .

توقف مرة أخرى أمام مطعم متواضع . ودخل فبهره الجمال . . والرقة . . والنظافة . أمن الممكن أن يكون ذلك مطعم فى قرية ؟ . . وجلس ينتظر . إنه جاهل لا يعرف الإنجليزية ولا الفرنسيه ، ولا أحد هنا يمكن أن يعرف العربية . كم مرت على اصطلاحات فرنسية فى كتب القانون . ولكن لم أكن أجرؤ أن أسأل عبد السميع عن معناها . والآن أعانى . ليس أمامى إلا اللغة العالمية لغة الاشارة .

ها هى الإشـــارة تضع أمامى سندويتش لحمة وطبق من السلاطة الخضراء . . وأنغمس فى الطعام . وأشعر كم أنا جائع . . الحق يقال إننى لم أعرف الجوع منذ أن أصبحت الشيخ عبد اللطيف التائب . وتابعى

شهدى الفرماوى . ياه . أيام بها أحداث كثيفة كثيرة . لا أذكرها بالدقة إلا بمناسبتها . أناس داخلون وآخرون خارجون . كل يثرثر . وكل يحكى بلواه . وأنا أفتى . وأرتكب الموبقـــات . كم من موبقات ارتكبتها مع نساء سذج ! . تلك التى تريد طفلا مثل سامية زوجة ذهنى . وتلك التى تريد رجلا . وتلك التى تشعر بالوحدة . وهذه التى هجرها زوجها وتريد استعادته . . المجنونة كيف أعيده لها ؟! وهذا الذى حرم من الترقية ، ويريد أن يرقى . كأنى رئيس المصلحة الحكومية . ولكنهم جميعهم يخرجون . يدعون للشيخ عبد اللطيف التائب . وكان من اللازم أن أجرد شهدى أولا بأول من راتبه . حتى لا يفكر أن يتركنى . لقد اتبعت معه طريقة « جوّع كلبك يتبعك » . هذه استفادة من بعض طرق الزعماء فى سيادة الشعوب فلم لا أستعملها ؟ واختفيت حينما بدأت الشرطة تراقب المكان . اكتشفت ذلك بالصدفة ، وأنا أتأمل الشارع بعد أن خرجت سامية من دارى ، رأيت مخبرا يراقب النافذة ، ويراقب الصعود والنزول . وتركت الشقة بما بها من أثاث ، وهربت من حدائق القبة إلى بولاق . ولعل الشرطة داهمت المكان فى اليوم التالى فلم تجد أحدا ، بل لعل الشرطة لم تجد حتى شهدى نفسه ، لأن أحدا لم يفتح له فى الصباح . بل لعل سامية حضرت تطلب الدواء فى اليوم التالى ، جلسة الجن الأزرق ، غير أنها لم تجد أحدا . ولعل صاحب العمارة استوفى الأجر المتأخر من أثاث الشقة .

رحلة طويلة بدأت بعد كفر الشيخ ، وحوادث غريبة . . أعقبها

دهر طويل من البطالة . فى أحضان عزيزة . تحت اسم عثمان علي عمر . كانت جميلة حقاً . لـكنها لا تنجب - لم يربطنى بها شىء . كانت تحثنى على العمل ، غير أنى استمرأت الخيبة . وباعت عمارتها لتنشأ تجارة المعلم عثمان علي عمر . غير أنى فررت بالجنيهات إلى أسيوط . وقد تحرك ضميرى وأنا أخطو إلى حجرتى ، وصممت علي أن أعود إليها بالمال فى اليوم التالى لأبدأ حياتى من جديد . غير أنه فى ذلك اليوم ماتت عديلة هانم زوج أبى . الحاكمة المستبدة التى قضت على مستقبلي لأنى لم أرضخ لإرادتها. ونسيت كل شىء .

ودخلت عليه فى حجرته . . أبى الخاضع للمرأة الجبارة .

- أصبحت وحدك الآن . . بلا طاغية .

- لم أكن أستطيع معاشيتها . . وأنت تعرف ، لقد كنتُ ضعيفة أيضا مع أمك أنا إنسان ضعيف .. ألا تعرف ذلك ؟.

عجيب أن يقر بضعفه بهذه السهولة .

- ولـكن لم يكن لديك شفقة على إبنك .

- أنت الذى اخترت طريق الانعزال .

- لم تحاول يوما أن تسأل عنى .

- فى الأيام القليلة التى كانت تغيب سيطرتها ، كنت أبحث عنك فلا أجدك . كنت شارداً .

- هى التى شردتنى .. وأنت ضعفت أمامها.

- لا أنكر ضعفى . . وقد متعتنى، بعكس أمك التى حرمتنى من كل

متعة . لقد كنت أكرهها .

ـ وكنت تكرهني لأنى ثمرتها .

ـ أبدا . . أنا لم أكرهك يا رحمى ، ولكنى لم أستطع معاشيتا .

ـ وأتنوى أن تتزوج مرة أخرى بعدها .

ـ أنا سأموت بعدها . . لن أجد غيرها تبعث فى قلبى النشوة .

ولم تنقض أربعون يوما حتى دفن معها فى نفس المقبرة . . هى فى قسم الحريم . . وهو فى قسم الرجال . مقبرة لا معالم لها . . مجرد أجداث متجاورة . وهناك دفنت الماضى الخبيث . . وأقسمت وأنا أنزع الرباط عن كفن أبى أن أعود رحمى رضوان عبد العال . . ومهما حاول أحد الضحايا السفر إلى منصور أو عبد السلام أو عبد اللطيف أو عثمان . . فسوف يتوه عن محطة الوصول . . بل سوف لن يتبين شاهد القبر . . وقد يتعثر كثيرا حينما يحاول أن يبعث الزمن الميت .

ياه .. ذكريات يا رحمى . . كلما كان الإنسان وحيدا يعيش مع ذكرياته . . مهما كان لونها القاتم أو الفاتح . وأنا وحدى الآن فى هذه السيارة المرسيدس . لا أهمية للجمرك الذى سأدفعه فيها ، فقد ترك لى رضوان عبد العال مالا وفيرا . . وآه لو كانت عديلة هانم ماتت بعده . لكانت الثروة انتقلت الآن إلى عائلتها لكنى فى أربعين يوما استطعت أن أسيطر على القصر . . كأنى زوج الأب التى لم تمت .

ياله من طريق جميل .. ثلوج فوق الجبال . وخضرة تحتها . أهذا إبداع أم روعة أم ماذا ؟ .. والآن لنترك هذه القرية الجميلة وندخل إلى

الطريق الطويل - ماذا ؟.. ما هذا ؟ أمجنون أنت ؟. أمجنون أنت ؟..

{ ٢١ }

أين أنا ؟.. وما هذه الضمادات التى حول رأسى ؟.. ياه .. حتى قدمى لا أستطيع أن أحركها . بل ساقى اليمنى . آه أهذا حادث وقع لى على الطريق ؟ يبدو أنها السيارة الشيفروليه التى اصطدمت بى . كم يا ترى من من وقت وأنا على هذه الحالة ؟.

يتلفت رحمى حواليه ، فيجد وجها تتاريا ينظر إليه بوداعة وإشفاق ويقول له بهدوء :

— الحمد لله أنك تحركت . .

ما هذه الأبوة الحانية التى تظهر من عينى الرجل ؟..

— أين أنا ؟ .

— فى مستشفى فى إحدى القرى اليوجسلافية . .

— من تكون ؟

— أنا مريض .. أقيم معك فى الحجرة .

— وما جنسيتك ؟

— يوجسلافى .

— ولكنك تتكلم اللغة العربية ؟ .

— تكلمتها لأنك تتكلمها .

— وكيف تعلمتها ؟ . .

— تعلمتها من آبائى وأجدادى . . ولأنى مسلم .

— وكيف عرفت أنى أتكلمها ؟

— أنا الذى قرأت لهم جواز سفرك باللغة الفرنسية والعربية .

— ياه .. أنت تجيد لغات كثيرة .. قلت إنك مسلم . ؟

— نعم . . وأنت ؟

— أنا مسلم أيضا .

— مسلم بالوراثة .. أم مسلم عن إيمان؟ .. أم مسلم بالوراثة آمن بالفعل .؟

— يا عزيزى . . أنا مسلم وكفى .

— لن أثقل عليك . إنك مقيم معى ولا سبيل أمامك إلا أن تبادلنى الحديث . يبتسم بحنو . يثلج صدر رحمى . كأنما حرمان السنين من الحنان ـ عوضه فى نظرات هذا الرجل اليوجوسلافى .

— ألا تعرف كم يوما سألبث فى هذا المستشفى ؟ .

— سألت الطبيب وأنت غائب عن الوعى . قال إن الجبس فى قدمك قد يستغرق وقتا طويلا . . ثلاثة شهور مثلا . . أما حالتك الصحية فتحتاج إلى شهر على الأقل .

— ياه . .

— لا تخش شيئا . . لقد تكفل الأمريكى الذى اصطدم بك بكل شىء . . بجانب إنه تعهد بإصلاح السيارة .. ودفع الغرامة .

— أية غرامة .

— لقد اعترف أنه الجانى .

يستغرق رحمى فى التفكير : هل اجترار الذكريات هو السبب؟ أم خطأ

ذلك الأمريكى الذى لم أره ؟ . . يجب أن أتصل بمصر حتى يعرفوا سبب تأخرى .

— ألا يوجد هاتف فى هذا المكان ؟

يشير العجوز ذو الوجه المجعد ، وابتسامته الحانية لا تزال ملتصقة بشفتيه :

— بجانبك ، ماذا تريد ؟

— أريد الاتصال بمصر ؟

— لا . . هذا هاتف داخل المستشفى . ولا أعرف ما إذا كان يصلح للمكالمات الداخلية والخارجية للجمهورية أم لا ؟ اسمح لى أن أسأل لك .

﴿ ٢٢ ﴾

فى المساء ، يرتشف من كوب شاى خفيف .. افتقد الشاى الصعيدى الغامق . ولكنك كنت تشربه بأمر خديجة بناء على أوامر الأستاذ عبد السميع ؟

يسأل العجوز :

— ما أسمك ؟

يقول :

— اسمى كالد .. أى خالد .. نسبة إلى خالد بن الوليد ، وما اسمك ؟.

— اسمى رحمى رضوان عبد العال .

— عاشت الأسامى كما تقولون .

— يبدو أنك خبير بنا .

— لقد عشت فى مصر .. وتعلمت بالأزهر الشريف . لعلى من أجل ذلك سألتك هل أنت مسلم بالوراثة أم عن إيمان ، ذلك لأنى شاهدت فى مصر كثيرين مسلمين .. لكنهم لا يمارسون شعائر دينهم . وأهمها الصلاة .

— أنا لا أفعل الرذيلة الآن .

— إذن فأنت فعلتها من قبل ؟ .

— نعم فعلتها زهاء عشرين سنة ثم امتنعت عنها .

— وهل كفرت عن سنين الرذيلة ؟

— تبت عن اقترافها .

— أنا أؤكد لك أنك يجب أن تكفر عن أفعالك .. إن مجرد التوبة لا تكفى . حقاً إن الله غفور رحيم . وهو يقبل توبتك .. لكن ضميرك سوف يؤنبك ولن يغفر لك إلا إذا كفرت عنها .

— مثلا إذا كنتُ قاتلا كيف أكفر عن القتل ؟

— قال تعالى . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أن من قتل نفساً بغير نفس أو فسادا فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . (صدق الله العظيم) أى أنك لو أحييت النفس لأحييت الناس جميعاً . وإحياء النفس أن تتعهد برعاية أحد الناس فى رأى .

— ومن سرق ؟

— يرد المسروقات إلى أصحابها .

— ومن نصب ؟

— يرد ما نصب فيه إلى الناس الذين نصب عليهم .

— ومن افترى ؟

— لا يعاود الافتراء .

- ومن خان الأمانة ؟

— لا يعاود الخيانة ولو تمكن من رد الأمانة يردها .

— ومن خلط بين الأنساب ؟

— يصون السر ولا يفشيه حتى لا يتحول إلى فضيحة . . تقلق الناس وتؤرقهم بلا ذنب جنوه .

— ومن . .

يقاطعه قائلا - أكل هذا اقترفته ؟!

يخفض رأسه ويقول ، وعيناه لا تكادان تبينان من بين الضمادات :

— هذا ماكان . . ولكنى لم أعد إليه . لا أعرف ما إذا كانت هذه الضمادات بعد خلعهاستسفر عن عاهات فى وجهى أم لا . ؟

— قرر الطبيب أنها لن تترك أثرا . . لذلك أطلق سراح الجانى بعد أن دفع الغرامة .

— الحمد لله .

— ليس فقط أن تقول الحمد لله إنما تمارس هذا الحمد .

— كيف أمارسه ؟

— تصلي إلى الله . . شكرا وتقربا .

— لا أعرف كيف أصلى . . فأبى أهملنى . . وامرأة أبى أخرجتنى من حيز الآدميين . والرجل الذى اشتغلت عنده فى بداية حياتى كان سكيرا يخادن امرأة ليست زوجه . والرجل الذى عملت عنده بعد ذلك خنته ، ولم يمس إيمانه ، حتى يطوقنى فى غلالته . وأدمنت الرذيلة . . ونأيت عن الفضيلة .

— إذا كنت تريد أن تتعلم فأنا أعلمك .

— غريبة أن أفسد فى حصن الإسلام . . وأتوب فى بلد شيوعى لا مكان للدين فيه .

ويطرق قليلا ثم يتساءل :

— وكيف يتسنى لى أن أصلى . . وأنا مطوق فى هذه الأطواق الجامدة ؟

— إن روحك ليست مطوقة . . روحك منطلقة . . فلا تتذرع بالذرائع .

— أنا لا أتذرع .. ولكنى جاهل . .

— لا تدّع الجهل . . لابد أنك رأيت مرضى يصلون .

— أبدا . . عشت كثيرا بين الأصحاء . ولم أشاهد المرضى . بل حينما قرأت فى الإسلام لم أقرأ العبادات، إنما قرأت المعاملات المالية والشخصية والمواريث والوصية ، بل تعمقت أكثر فيما يقال عنه أصول الفقه . ولكنى لم أحصل على إجازة من الجامعة بذلك .

— لا تيأس . . إننى أدرس اللغة التركية الآن رغم أننى أدنو

عن السبعين .

أمن الممكن من جديد أن أعود لأبحث عن المقبرة . . وأفتحها . . وأستخرج منها يد الماضي التي قطعتها حتى يصبح عاجزا لاصلة له بالمستقبل والحاضر . وأحاول أن أوصل اليد مرة أخرى . . كيف يا أيها العجوز الحنون . . كيف ؟

(٢٣)

يتأمل وجهه فى المرآة . . لاخدش ، كأن يد الطبيب سحرية . . لا مشعوذة أيها الدجال القديم . لكن فسوف أحاول أن أكفر عن ذنوبى فى هذه الدنيا قبل أن أرحل إلى الآخرة . . سأذهب إلى الأستاذ عبد السميع أولا . لن أجثو بين يديه ، وأطلب منه الغفران . سوف أرد إليه أمواله المنهوبة وماكانت من الممكن أن تدره طوال هذه السنوات . سأبدأ به . سأبدأ بأول الماضى ، وبعد ذلك أصل إلى أطراف الحاضر . سأضمه إلى الشركة محاميا عنها ، وأجزل له العطاء . لن يعمل شيئا يستحق الأجر . ولكن فى ظرف شهور سيكون قد استرد كل الأموال التى سرقت .

لا يزال يحيا فى نفس المنزل الذى تركته فيه منذ أكثر من عشرين سنة . هناك أناس لاترضى أن تفارق الجمادات مثلما لا تهجر البشر الذين حولها . وقد يكون السبب فى ذلك ارتفاع الايجارات وأجرة المساكن . . لقد عرفت العنوان من محامى الشركة . . حيث ترك لنا كل المعلومات التى تساعد على الاتصال به إذا كانت الشركة فى حاجة إليه . نفس العنوان الذى أعرفه تماما .

نفس الدار . . دار مستأجرة من شركة مصر الجديدة . . ياه . . لا معالم فى الجاد تغيرت . لا تزال الدور الصفراء المعتمة واحدة . ولا تزال الأشجار الخضراء تحيطها . ويفتح رحمى الباب ويدخل ليفاجأ بجمع يجلس فى الحديقة ، ومقرىء يقرأ القرآن . ينتحى جانبا من الحديقة ، ويجلس إلى كرسى خيزران . . كأن الناس فى مأتم . يميل إلى جاره ويسأل :

— ماذا حدث ؟

— توفى الأستاذ عبد السميع اليوم .

تبرز خديجة تحمل القهوة للمشاركين فى العزاء . لعله لم يكتشف أنك كنت تدسين السم له ، كنت تريدين أن تفوزى بالثروة الراقدة فى الخزانة ، ففاز بها منصور الخادم .. انتصر عليك منصور . ولكن كيف استمررت معه ، ولم تقتليه ؟ أأفاق ضميرك فجأة يا خديجة ؟ أم تراه كان يودع نقوده أولا بأول فى المصارف ؟ وبقيت خشية التشرد وتوقفت عن قتله . وألقيت التهمة على منصور .

تقترب منه . . تمد له فنجان القهوة . يرفض أن يشرب الفنجان . تنتقل إلى الآخر الجالس يمد يده متلهفاً . غريبة أنها لم تعرف أن الوجه الذى أمامها هو وجه منصور الذى كان يعمل معها يوما ما . يبدو أن البدلة الأنيقة أخفت المعالم . ويبدو أن الشيخوخة قد داهمتها فى عينيها فأفقدتها التمييز بين الأشياء . ضباب العجز يقتل الشفافية . لقد كان ذكاء عبد السميع وقاداً حتى أنه اكتشف انى منصور ، لكن الحجة غابت عنه .

والآن لم يعد هناك مجال للتفكير .. لقد غاب الرجل الذى كان علينا أن نضع فى يده المسروقات . لكن كيف السبيل إلى التكفير عن ذنب اقترفته فى حق عبد الونيس ذلك الرجل الذى خنته مع زوجه ؟ .. وأم المأمون التى خدعتها وتظاهرت أنى زوجها وهى لاتدرى أنها حامل من غريب ؟.. لابد أن عمل الخير قد يكون مجديا .. لكن لا يزال هناك أشخاص آخرون لا أعرفهم، وأشخاص أعرفهم مثل سامية وعزيزة وشهدى .

(٢٤)

— أتذكر السيدة التى طلبت أن ترفع لها دعوى تطليق ؟

— يعجبنى فى سيادتكم الدقة فى اختيار الألفاظ

— كيف ؟

— حينما تقول دعوى تطليق .. وليس مثل العامه حينما يقولون دعوى طلاق .. قرأت مرة صحفيا يقول ذلك .

يقول المحامى مستطردا :

— إنك دقيق فى اختيار الألفاظ .

— تقول ذلك لأنى لا أحمل شهادة فى القانون .

يضحك المحامى ويدارى خجله لحظة بإدارة وجهه إلى الناحية الأخرى ثم يقول :

— لقد طلقت بالفعل .

— عزيزة .. اسمها . أليس كذلك ؟

— نعم . إنها زوجى

— ولكن على ما أعرف أنك متزوج ولك أولاد ؟ !

— نعم .. ولكنى أحببتها .

— أحببتها أم أحببت نقودها ؟ .

— إننى كنت أحيا مع زوجى حياة كلها منغصات إلى أن لاحت فى الأفق عزيزة .

— إذن اسمح لى أن أحضر لزيارتكم .

(هدية الزواج . . تليق بأنثى محترمة . قيمتها من قيمة الأموال التى نهبتها منها . ولا يتمكن زوجها من الاستيلاء عليها . ذهب ترصع به جيدها الأسمر . ويديها المكتنزتين . لا سبيل إلى اعادتك إلى عصمتى من جديد ياعزيزة فأنت لم تعودى تليقين بالوجيه القادم من الصعيد . ولأنك الآن فى عصمة رجل . غريبة أننى لا أشعر بالغيرة من هـذا المحامى ، كأنما لم أكن فى يوم من الأيام زوج عزيزة ! كأنى لم أكن أحبها ! لقد قتلت زوج أبيك فى نفسك كل عاطفة نبيلة وجعلتك لاتنعم إلا بالعواصف والانفعالات . ثم أعادتك دروس العجوز اليوجوسلافى إلى استرداد طبيعتك التى ضيعتها منك ولكنك لازلت تحاول أن تستردها .)

— يا رحمى بك .. أنا عاجزة عن الشكر .

— لم أكن أعرف أنك تزوجت . . وتزوجت محامى شركتى . كان من الواجب أن أتقدم بهدية بسيطة بمناسبة زواجكما، ولكن الحادثة التى تعرضت لها فى طريق يوجوسلافيا كانت من الأسباب التى منعتنى عن معرفة أى شىء .

— ولكنها ليست هدية بسيطة .

— لا يخلو عليك شيء .

— إنها هدية تعويض عما سرقته . هذه أموالي ردت إليّ يا عثمان . ترى هل اسمك حقا عثمان أم رحمي؟ أم ترى لك اسما آخر ؟ لعلك ظهرت على وجه الأرض بهذه الشركة وذلك الاسم لتضع خطا لمصرف من المصارف وتسافر ومعك أوراق الصرف التي لا تحصى مثلما يفعل غيرك الآن . ولكن هل من المعقول أن يكفر النصاب عن خطيئته بينما هو يرتب لجريمة جديدة ؟ .. أنا تائهة يا عزيزة .

هذه يا مغفلة بعض الضمادات أغطي بها وجه الماضي وجسده وأطرافه حتى أغسل ما اعتراه من خطايا . ويعود ماضيا نقيا لا يقلق ضمير أحد . أنا الذي سافرت إلى الزمن الميت لأحييه .. من غيري يمكن أن يسافر ويعود سالما . إن منكم من حاول وخاب أمله وعاد حسيرا .

{ ٢٥ }

يقلب في المجلة ، وهو هادىء . تم الآن كل شيء ، أرجعت النقود إلى ورثة الأستاذ عبد السميع . وعوضنا عزيزة بهدية غالية . والتقيت بشهدي ، وألحقته بالعمل في الشركة سائقا ، وبمرتب مجز ، ومكافآت وحوافز لم يحلم بها وهو سائق أجرة . أما النساء اللواتي ارتكبت معهن الفاحشة . فالتكفير الوحيد ألا أعاودها مع غيرهن . وإذا كانت نفسي الآن صادقة عن الزواج ، فيجب أن أتجمل بالصبر .

وفوجيء بخبر منشور في صفحة المجتمع .

« زواج الأستاذ منير رامى على ربة الصون والعفاف سامية بكرى » ..
وتأمل الصورة بعمق . زوج ذهنى .

طلب محاميه فى البيت بالهاتف وسأله :

— هل طلق المالى الكبير ذهنى زوجه سامية ؟

قال المحامى :

— يبدو أن هناك أحداثا كبيرة فاتتك وأنت مسافر فى الخارج ..
لقد مات ذهنى بك ، وبعد الأربعين خطبت السيدة سامية إلى منير رامى أحد أصحاب زوجها ..

— من أجل ذلك كتبوا فى التهنئة بأنها ربة الصون والعفاف حتى لا يذكر أنها سيدة أرملة تتزوج .

— يبدو أنك تقرأ المجلة .

— نعم .. نعم .. إلى اللقاء .

نهض كالمفزوع . ماله هكذا تأثر ؟ .. أتكون قد أحببتها ؟ خرافة .
إنها مأفونة من المأفونات اللواتى لعب بعقولهن المغفور له الشيخ عبد اللطيف التائب . إذن ما السبب فى هذه الثورة التى تجتاحك ؟ ..
أتكون تخشى على ابنها أن يعامله منير رامى معاملة عديلة هانم لك ؟ ..
وماذا ستفعل أنت .. هل أنت مبعوث العناية الإلهية ؟ .. أم تراك تخشى على ابنك .. أن يعامل المعاملة القاسية التى عصفت بحياتك .
تقريبا الولد فى نفس السن .. وفى نفس السنة الدراسية . وما أدراك أنه ابنك ؟ لربما كنت شيخا ساذجا لا تدرى .. ربما كانت تبحث عن

وارث لأبيه عند عدد من الرجال . لا . . سامية لم تكن كذلك . .
أتشعر ببنوته ؟ إذن ابحث عن مأمون ابن أم مأمون فى كفر الشيخ .
ابحث عن النساء السافلات اللواتى لجأن اليك مثلما لجأت سامية . اعقل
واهدأ . ولا تثر . لكن هذا الولد المسكين ما ذنبه ؟ أيكون عليه أن
يرث قدر أبيه . أبوه مرغت بأنفه التراب امرأة . ولتغيرت الصورة
قليلا . وسوف يمرغ أنف الإبن رجل . تبديل فى سيناريو الأقدار .
ليس فى يدك سبيل أن تحول دون زواج أمه . أمن المعقول أنك
لو عرفت أن ذهنى مات لأسرعت إلى الزواج من سامية ؟

يخرج إلى النافذة يتنفس نسائم الليل الندية . يفيق على داهر يقهقه
فى نفسه . يبدو أن المأساة سوف تتكرر . ولمَ تتكرر المأساة ؟ . . ألا يجوز أن
يكون منير رامى هذا رجلا فاضلا ليس فيه نوازع عديلة الجبارة ؟ .
أقول لك استقص عن أخلاقه حتى تطمئن . وعاد يقهقه من جديد . شخص
ساخر فى نفسه . يشعر أنه ينقسم إلى شخصين واحد ضعيف مدلول .
والآخر جبار ساخر . ووضع يديه على وجهه ومسحه بقوة كأنما يحرك
الدم فى وجهه ، فيلطخ صورة الانقسام التى يراها بلون قان .

ويحاول أن ينام ، غير أن الأرق يزوره ويجالسه : كان من الواجب
أن تكتب كشفا بضحاياك حتى تسدد ديونك ويبدو أنك سوف تعيش
عمرك المقبل تدفع فى هذه الديون ولا تتوقف . إنك سددت دينا أو
اثنين أو ثلاثة ، لكن عشرات الديون لا يزال أصحابها يمدون إليك
أيديهم . يبدو أن سفرك إلى الزمن الذى مات ، حرك ذلك الضمير الذى

حدثك عنه اليوجسلافى العجوز . يبدو أن ذلك الرجل أيقظ ذلك الضمير وبعثه ، ويبدو أنك لن تهدأ بعد اليوم . غريبة أنك بعد أن دفنت الماضى استمررت أكثر من ثلاث سنوات لم يستيقظ ضميرك . والآن يطاردك الأرق ليلا . وشدة فى النفس صباحا . وفزع كلما لاحت صورة من صور الماضى .. وكثيرا ما تلوح .

ما بالك تتبع أخبار هشام أولا بأول ! ورصدت العيون لينقل لك أخباره . وعرفت أن عمه حصل على الوصاية عليه ، وأن أمه فقدت حضانته لزواجها . كيف تفرط أم فى ولدها بهذه السهولة ؟ .. لعلها تزوجت لتضمن أن يؤول إليها مقدار كبير من الثروة . ولكنها لم تحسب أبدا أن يكون الولد تحت وصاية عمه ؟ .. بل لعلها وجدت فى منير رامى - وهو فعلا كذلك - اخطبوط من أخطبوطات المال ، ففضلت أن تضحى بثروة الولد فى سبيل مزيد من الثروة .. تريد أن تعيش حياتها بعد أن قضت ثلث عمرها مع معلول .

ومالك تتصل الآن بالعم حتى تكون على مقربة من هشام ! وتوثق العلاقات بين شركتك وشركته ! أنت تعرف أن هذا العم كان يكره أخاه ، وأخواته العوانس لا يقل شعورهن عن شعوره نحو الأخ . فهل الابن سوف يفاضل الأب فى المكانة ؟ .. لقد وضعت السيناريو أن الزوج الجديد سوف يسوم الولد العذاب مثلما فعلت بك عديلة . والآن يضحك منك القدر ويضع أمامك أربعة شياطين تتقد قلوبهم بالحقد والكراهية والغيرة طيلة سنوات طويلة . كيف تحمى هشام من هذه الغيلان

الأربعة؟.. أمه ألقت به في هذا الاتون .. الجرمة! لكن ما ذنبها؟ لقد تعدى الولد العمر الذي تحق لها فيه حضانته وأصبح الوصى ولياً عليه شرعاً..
ألا يتدخل وينقذه من هذه الورطة؟ ألا يعمل عملا من أعمال الخير وينقذ الولد من ذلك المصير المظلم؟ .. كيف؟ ..

في زيارتك الأخيرة لحمزة لم تر هشاما . قيل إن ابن ذهنى بك في حجرته يستذكر .. أتصدق ذلك؟ .. لعلهم حبسوه مثلما حبستك عديلة المرحومة أو المجحومة . وقد أحاط بك زعيمهم إبليس، والعوانس الثلاث يستقبلنك بالترحاب . كأنما تظن كل واحدة منهن أن من الممكن أن تكون عريساً لها .

شغلك هشام .. حتى أنك راقبت منزل حمزة ولم تجده يذهب إلى المدرسة . وكان يجب أن تتأكد من ذلك .. فاستمررت في الرقابة حتى عرفت الحقيقة : إن حمزه ينتقم في شخص الولد الصغير من أبيه الذي كرهه كثيراً. منعه من الذهاب إلى المدرسة مثلما لم تبال عديلة بمواظبتك على الدراسة والأم السافلة تخلت عن ابنها ، لم تعد تتابع الوصى السافل.

تجرأت وطلبتها على الهاتف :

— أنا رحمى .

— أهلا .. أهلا .

— قرأت مؤخراً عددا من مجلة لم أكن قرأتها .. واتضح لى أن زوجك توفى .. وتزوجت بآخر.. فلا أدرى هل أعزيك أم أبارك لك؟

— وأين كنت؟

— لقد أصبت فى حادث سيارة، كنت فى المانيا وعدت بالبر بسيارة مرسيدس . وفى الطريق اصطدمت بى سيارة أخرى . ونقلتُ إلى المستشفى . واستمررت بها زهاء شهور ثلاثة .

— لقد بحثتُ عنك، كثيرا .

(كنت أريد أن أضمك الىّ . كنتُ أريد أن أقول لك خذنى وكن أبا لابنى .. إبنى إبنك .. لكنى لم أجدك) .

— أنا آسف . الظروف كانت قاسية .. وأين هشام ابنك الآن ؟ .

— إنه يعيش مع عمه تحت وصايته .

— ولم فرطت فيه بهذه السهولة ؟

— لم يكن بإمكانى .. إنه حكم المحكمة . لقد تزوجت وأصبح من حق عمه وعماته أن يرعوه .

— وهل تثقين بهم ؟

— وماذا أفعل ؟

— أعتقد أن العم أخ غير شقيق لزوجك السابق، وأنهما كانا يتبادلان الكراهية .. هكذا قال لى يوما ذهنى بك .

(ذهنى بك الذى قال لك .. أم سامية هانم يا شيخ عبد اللطيف؟ .. أخيرا تحرك ضميرك ..)

— وماذا أستطيع؟

— أعتقد أنه يمكنك أن تحلميه من الوصاية يا سامية هانم .. على اعتبار أنه غير أمين عليه .

ـ كيف ذلك ؟
ـ إنه لا يسمح له بالذهاب إلى المدرسة .
ـ ياخبر . كيف عرفت ذلك ؟
ـ كيف عرفت ذلك ؟.. بالصدفة .

* * *

انتظرت عليها كثيرا أن تفعل شيئاً . غير أنها كانت سادرة . أغوتها الثروة الجديدة ، ورغبة زوجها فى السفر إلى الخارج وحبها للسفر ، فتركت الجمل بما حمل، ورحلت معه .. لم يعد أمامك إلا أن تتدخل لإنقاذ هذا الصبى البرىء . كنت أنت صبياً بريئاً حينما دخلت عديلة هانم القصر غير أنها شوهت نفسيتك . فهل تسمح بارتكاب الجريمة مرة أخرى .؟ حقاً إن هشام لا ينتسب إليك شرعا . لأن الولد للفراش .. هذه هى القاعدة الشرعية التى تحفظها منذ قرأت الشريعة الإسلامية فى بيت عبد السميع المحامى . ولكنه ولدك بالروح . ويجب أن تنقذه . عليك من جديد أن ترتكب فعلا خارجا على القانون يضاف إلى أفعالك السابقة . وتخطف هشاما!..

(٢٧)

ـ أنت لا تعرفنى :
ـ لا، أنا أعرفك.
ـ من أنا ؟
ـ أنت عمى رحمى بك رضوان .. صديق والدى .
ـ يالك من ذكى ياهشام ! .

— وهل كنت سعيدا فى بيت عمك ؟

يبكى ، تنهمر الدموع على خده ، وينعقد لسانه .

— لا تبك يا بنى . لقد شعرت بالظلم الذى لحق بك ، ورأيت أن أنقذك من براثن هؤلاء الأوغاد . لا تهتم بثروه تركها أبوك ، أنا كفيل بأن أردها إليك . وحتى لو ضاعت فأنا كفيل بردها إليك أضعافاً . إن ثروتى كلها ملكك . ولقد كان أبوك رجلا فاضلا وصديقا مخلصا . ولا أرضى لك أى هوان .

— وأين سأعيش ؟

— تعيش فى قصرى هنا فى أسيوط ، وسوف تتعلم .. وسوف تظهر بعد أن تبلغ الحادية والعشرين ، وتطالب بثروتك ، وثق أن عمك لن يمكنه أن يبددها لأنه وصى عليها . وسوف ترسل إلى النائب العام بلاغا يهيج السلطات ضد عمك . ستقول لهم إنك مختف ولن تظهر إلا فى سن الحادية والعشرين لأن الوصى غير أمين عليك . . الوصى منعك من الذهاب إلى المدرسة . وأخوات الوصى ينتقمن منك لأنهن أخوات غير شقيقات . وكن يكرهن أبيك ، ولن يتمكنوا كلما أبلغت النائب العام بذلك سنة بعد أخرى أن يدعوا أنك مفقود . ويحصلوا على ثروتك فى مدة قانونية معينة ، لأنك دائما ستكون على اتصال بالنائب العام . تذكره أنك حى . وحتى لو رفعوا قضية بأنك مفقود . فسوف أظهر بك ، وتطلب وقتئذ حمايتك من عمك وعماتك ، بل انك ستطلب من النائب العام تنحية عمك وأنت مختف لأنه غير أمين عليك .

مذهول هشام من كلام عمه الفاضل .

وكان مذهولا لما فعله . فبعد أن انصرف عمه إلى إدارة أعمال الشركة . وخرجت عماته الثلاث يتشمسن في الحديقة، صعد رحمى إلى العمارة المتهالكة ودفع الباب فانفتح، وكان القفل قديما.لايقاوم الصدمات . آثر صاحبه أن يستمر حارسا للباب رغم تهالكه ـ هو الآخر . ونادى:

— هشام .

وخرج هشام من حجرته التي انزوى فيها بعيدا عن هؤلاء المجرمين وقال :

— من ؟

— تعال معى .

وخرج الولد دون مقاومة . كان يعرفه . ويعرف أنه صديق أبيه . وأنه كان يراه كثيراً خصوصاً حينما يأخذه أبوه معه إلى شركته ويقابل العم رحمى ، هناك يتشاور مع أبيه في الصفقات الزراعيه . خرجاورحمى يشد يد هشام الذى يتساءل .

— إلى أين ؟

— يجيبه رحمى :

— سأنقذك من هذا العذاب . ألست فى عذاب ؟

يرد هشام بسرعة ، وقد انبسطت أساريره :

— نعم .. إنى فى عذاب .

ويحمله بسيارته المرسيدس إلى أسيوط . نفس القصر الذى تربى فيه ـ

من سيشك أن من الممكن أن تكون لرحمى رضوان علاقة بهذا الصبى الصغير ؟ . . ومن يسعفه فكره أن هذا المليونير يمكن أن يخطف طفلا لحمايته من عمه الشرير ؟

— ماذا فعلوا بك يا هشام ؟

— لا يسمحون لى بتغيير ملابسى إلا كل أسبوع . لا يسمحون لى بالخروج . يمنعونى من الرد على مكالمات أمى . لا يسمحون لى بان أتصل بها . . آكل وجبتين فى اليوم . يدّعون أن هـذا هو الغذاء الصحى . منعونى من الذهاب إلى المدرسة . يفضلون أن أبقى أمياً . هكذا قالوا لى . . حتى أعيش ولا يحسدنى أحد على ما أنا فيه . . وليس لديهم تليفزيون ولا مذياع . . كدت أجن . . ولم أستطع أن أهرب . يقفلون الباب خلفهم ويتركونى فى البيت وحيدا . يسكنون فى دور عال لا يساعد على الهرب ولا يسمح لى بأن أقفز من شرفته . لم تواتنى الفكرة أن أكسر الباب مثلك وأهرب . . إلى من كنت سأهرب ؟ . . أنا لا أعرف عنوان أمى الجديد .

— وهأنذا أنقذتك يا هشام ؟

تتلألأ عينا الصبى ويقول :

— لقد حللت فى قلبى فى مكانة مثل مكانة أبى . . يا عمى . .

[تم]

الرياض فى ١١/١٠/١٩٨٨ م

أحدث إصدارات المؤلف

- وقائع غير مرئية تحت الشمس
- لآلىء الزمن الخالى
- غالبا ما يتفتح الزهر
- بعد فوران الحمم
- خذ الحذر

تطلب من الناشر مكتبة الآداب

رقم الايداع ١٩٨٩/٣٢٩٨